جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة

كلية أصول الدين

قسم الدعوة والإعلام والاتصال

مطبوعة موجهة لطلبة الماستر

مقياس: منهجية الاتصال الدعوي

إعداد: أ.د. مراد زعيمي

السنة الجامعية: 2012/2011

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية أصول الدين
قسم الدعوة والإعلام والاتصال

مطبوعة موجهة لطلبة الماستر تخصص
دعوة وثقافة إسلامية

مقياس:منهجية الاتصال الدعوي

عداد:أ.د مراد زعيمي

السنة الجامعة:2012/2011

بـــرنـــامـــج منهجية الاتصال الدعوي

أولا: المنهج

تعريف المنهج وأهميته

مقومات منهجية الاتصال الدعوي

مبادئ منهجية الاتصال الدعوي

ثانيا: الاتصال والاتصال الدعوي

تعريف الاتصال.

تعريف الاتصال الدعوي.

أهمية الاتصال الدعوي.

مكونات العملية الاتصالية.

وظائف الاتصال الدعوي.

أهداف الاتصال الدعوي.

خصائص الاتصال الدعوي الفعال.

معوقات الاتصال الدعوي.

ثالثا: الرسالة، المرسل، المرسل إليه

الرسالة

المرسل.

المرسل إليه.

رابعا: وسائل الاتصال الدعوي.

الاتصال بالفعل:

القدوة:

الهدايا والتبرعات:

المشاركة في المناسبات الاجتماعية:

تقديم التسهيلات والخدمات:

الاتصال اللفظي:

وسائل الاتصال الشخصي أو الذاتي:

وسائل الاتصال الشخصي المباشر:

المناقشات والأحاديث الرسمية وغير الرسمية.

الاجتماعات.

الزيارات.

المقابلات.

منافع ومحاذير الاتصال الشفهي:

وسائل الاتصال الشخصي غير المباشر:

الوسائل الالكترونيكية:

التلفون.

التلغراف، التلكس، الفاكس.

الحاسب الآلي.

الدوائر التلفزيونية المغلقة.

الوسائل غير الالكترونيكية:

الخطابات والرسائل.

دليل المعلومات للوافدين الجدد.

لوحات الإعلانات والنشرات الدورية.

منافع ومحاذير الاتصال الكتابي:

وسائل الاتصال الجمعي:

وسائل الاتصال الجماهيري:

الصحف.

المجلات.

الإذاعة.

التلفزيون.

الاتصال غير اللفظي:

تعبيرات الوجه.

حركات الجسم.

التعبير بالأشياء المادية.

الصور والرسوم والمجسمات.

مقدمة:

عندما نهمل التدبر لبعض المنطلقات المنهجية للعمل الإسلامي بحجة أنها من البَدَيهِيّات الإسلامية، ومن المعلومات من الدين بالضرورة؛ فإننا كثيراً ما نقع في الانحراف عنها تدريجياً، فلا نشعر بذلك إلا بعد فوات الأوان!

ذلك أن الانغماس في الشأن اليومي السياسي والنقابي والاجتماعي العام للحركة الإسلامية؛ قد يصنع مناخاً سيئاً لتربية الخَلَف من النشء الإسلامي. وكذلك الدوران الداخلي حول الذات الحركية عندما تثقل أعباء العمل الإدارية والتنظيمية الداخلية؛ **فكل ذلك قد ينسي الجيل الجديد أنه يشتغل ضمن حركة إسلامية قامت أساساً على أصل تعبدي**، وقد يعصف الصراع السياسي الدائر في المجتمع بالبقية الباقية من الإحساس التعبدي في العمل لدى كثير من الشباب، فتبدأ النتوءات المنحرفة في الفكر والممارسة من هنا وهناك، وهو ما لاحظناه فعلاً في بعض القطاعات الطلابية والنقابية والسياسية التي أنشأها العمل الإسلامي أساساً لإقامة الدين وعدم التفرق فيه؛ مما يفرض على ذوي الرأي والتوجيه في الحركة الإسلامية ضرورة الحرص في العمل التربوي على تجديد الوعي بالمنطلقات المنهجية، والثوابت الإسلامية في كل عمل يراد له أن يكون إسلامياً.

إن عدم توحيد المرجعية، وعدم ضبط المنطلقات لن يضمن استمرار التوجه الإسلامي الصرف لأي حركة قامت في الأصل على منهج كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -، ثم غفلت عن (بديهياتها).

إن القول بوجوب رجوعنا إلى القرآن الكريم ليس بمعنى تزيين الكلام بآية أو أخرى هكذا اعتباطاً، ولكنه رجوع منهجي مبدئي يجب أن يتقرر في الأذهان، ويستقر في الوجدان؛ ليكون فعلاً نوراً يمشي به المسلم في طريقه إلى الله، ويبقى ذاكراً جيداً أنه بهذا العمل السياسي، أو النقابي، أو الاجتماعي، أو الإعلامي... إلخ، إنما يعبد الله. هذا هو الأصل العظيم الذي كثيراً ما يغيب، فيغيب معه كل شيء؛ لأنه (الفصل الجوهري) ـــ على حد تعبير المناطقة ـــ الذي يَسِمُ العمل بوصف (الإسلامية).

مما لا شك فيه أن للدعوة إلى الله تعالى، منهجية مبنية على أسس راسخة، وسبل بيّنة من الكتاب والسنة، واجبة الإتباع، لا تخضع لعواطف الناس، ولا تتأثر بأهوائهم، ولا تستجيب لاستخفافهم، بل هي منهجية مرسومة على بصيرة ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: 108].

وإن إغفال الالتزام بهذه المنهجية، جر على المسلمين مصائب مؤلمة، وكوارث كبيرة، وتراجعات دعوية مؤسفة.

لكن ؛ كيف تعالج هذه الحالات معالجة منضبطة، وما هي ضوابط هذا المنهجية، هذا هو الذي سيُستعرض إلى بعضه من خلال هذه المادة.

أولا– المنهج:

تعريف المنهج:

قال تعالى: { لكل جعلنا منكم شرعة ومنهجا } المائدة 48.

قال ابن كثير: " المنهاج: الطريق الواضح السهل، أو السبيل إلى المقاصد الصحيحة."[1]

هو الكيفية التي يتم بها تنفيذ شيء ما حسب نظام معين انطلاقا من جملة مبادئ من أجل الوصول إلى هدف معين.

جملة الإجراءات الموجهة للفكر من أجل الوصول إلى نتيجة محددة.

الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة.[2]

الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم..[3]

أهمية المنهج

لا يكفي أن يكون للإنسان عقل سليم بل ينبغي أن يحسن استخدامه حتى يكون عالما أو باحثا أو طالب علم.

إن المنهج لا يضيف خطوات جديدة للنظر العقلي للإنسان كالملاحظة وفرض الفروض والتجريب.

المنهج يساعد الإنسان على حسن استخدام ملكاته العقلية (كالتحليل والتركي والاستقراء والوصف والتفسير ...)

المنهج يجنب أخطاء الحواس.

عناصر المنهج

الأهداف

المبادئ

المراحل

الأساليب

الوسائل

المناهج الدعوية في الساحة الإسلامية:

منهج التغيير التربوي.

منهج الدعوة والتبليغ.

المنهج الصوفي الطرقي.

المنهج الاجتماعي. (الخدمة الاجتماعية).

المنهج السياسي.

المنهج القتالي.

المنهج السلفي.

تعريف المنهجية:

هي الأصول والقواعد الدعوية التي يجب على الداعية أن يراعيها في دعوته، لتحقيق الحكمة، لكي تثمر دعوته. أو هي إرشاد الداعية في طريقه، وضبط مسلكه الدعوي، في معالجة أحوال المدعوين، لإعطاء كل حال موقفها وأسلوبها المناسب.

قال تعالى: { **وَأَنَّ هَـــذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** } [الأنعام:153]

جاء تفسير هذه الآية عن المصطفى عليه الصلاة والسلام أحسن تفسير، فعن عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً، ثم قال: ((هذا سبيل الله))، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: ((هذه سبل))، قال يزيد: متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: { **وَأَنَّ هَـــذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** } [1].

---

[1] رواه أحمد (435)، والنسائي في الكبرى (11174)، والحاكم (318/2).

مقومات منهجية الاتصال الدعوي

فقه الأولويات:

مما هو معلوم من الدين بالضرورة، أن في الدين أولويات.. أولويات في قضايا الإيمان.. وفي الأعمال.. وفي الأمر والإنكار.. وفي العلم.. وفي التعليم.. وأولويات في التبليغ والدعوة.

والمقصود بفقه الأولويات: ترتيب العالم أو الداعية لأوراقه.. الأهم فالأهم.. والأحوج فالأحوج.. والأنفع للمدعوين فالأنفع.

ومَثَلُ ذلك؛ كمثل طبيب يداوي مريضاً، به أكثر من مرض.. وهكذا في معظم الأمور، فينظر إلى الأخطر فيداويه، ثم الأقل خطورة، وهكذا..

فهل من الحكمة، أن يبدأ بمداواة مرض الرشح، وينشغل به، عما أصاب بدنه من داء الدرن..؟!

إذا كان ثمة رجل مبتلى بترك الصلاة، وبتعاطي الدخان، فيؤمر بالصلاة أولاً، وإذا كان رجل يتعاطى المخدرات والدخان، فيحذر من المخدرات أولاً. وهكذا.

ومن هذا الباب: الدعوة إلى التوحيد قبل العبادات.. وإلى الأيمان قبل الأحكام، والخوف من الله قبل النهي عن المحرمات.. ووحدة الصف مقدمة على الدعوة إلى السنن، وهكذا مما سيأتي تفصيله في بابه.

وليس من مانع إذا رأى الداعية مصلحة في الكلام عن أكثر من أمر، أن يُقدم مهماً على أهم، في بعض الحالات النادرة، لمصلحة ظاهرة، إذ يترجح المفضول على الفاضل ببعض القيود.

كأن يزور قوماً كثرت فيهم معصية كالسفور وليس لديه وقت للتدرج معهم.. فباشر بالدعوة إلى الستر.. وهكذا.

ولذلك نجد هذا الفقه واضحاً في وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه، وفي مقدمتهم معاذ رضي الله عنه، حين بعثه إلى اليمن، وسيأتي تفصيل ذلك في متن البحث.

إن فقدان فقه الأولويات، يحدث خللاً بالغاً في الدعوة، ويوقع كثيراً من الدعاة في اضطراب في المنهج، وتخبط في الدعوة، فتضيع بذلك الأوقات. وتهدر الطاقات. ويحدث ذلك أثراً سلبياً، وربما نتائج عكسية، في دعوة من فقد ذلك.

إن فاقد فقه الأولويات، قد يدعو إلى الأعمال قبل تحقيق توحيد الربوبية والألوهية، وإلى السنن قبل الواجبات، وإلى ترك المكروهات قبل المحرمات، وإلى الشكليات قبل المضامين، وإلى الفرعيات قبل الأساسيات، كوحدة الكلمة، وتماسك الصف، مما ينعكس أثره سلبياً على الدعوة.

إن فقه الأولويات؛ يمنح الداعية بصيرة في دعوته، وتوفيقاً في تصرفاته، ويحفظ عليه وقته وطاقته.. ويعطيه رؤية واضحة في المنهج بعامة، وفي الدعوة بخاصة.

وسنتعرض إلى أولويات الدعوة، وأدلة ذلك تفصيلا ضمن الكتاب، وإنما المقصود هاهنا - كما أسلفنا- التنويه لا التفصيل، والتذكير لا الإسهاب.

ب- فقه المقاصد:

إن للشريعة الإسلامية الغراء غايات عظيمة، ومقاصد نبيلة: مقاصد عامة.. ومقاصد خاصة، في كل حكم من أحكامها: وفي كل فرع من فروعها: فرع القضاء.. فرع الحسبة.. فرع البيوع.. ومن أهمها مقاصد الدعوة إلى الله تعالى.

ومن فقد فقه المقاصد، تخبط في منهجه، وأفسد في دعوته.

فمن مقاصد الشريعة في الدعوة إلى الله تعالى هداية العباد، ورحمتهم، لا محاسبتهم وكشف عوراتهم.

ومن مقاصد الشريعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إتيان المعروف، والانتهاء عن المنكر، لا مجرد الأمر به، والنهي عنه، فلو تحقق ذلك بأي أسلوب مشروع، كان ذلك هو المقصود.

ولذلك لم يحدد الإسلام أسلوباً معيناً، ولم يعين وسيلة خاصة، ولم يلزم أحداً من ذلك بشيء، بل ترك الباب مفتوحاً، ضمن إطار الإسلام العام، وفي حدود الشريعة الغراء.

ونجد هذا واضحاً في أفعال النبي صلى الله عليه وسلم ووصاياه: في الجهاد مثلاً، فمقصد الجهاد: هداية العباد، ودفع الصاد عن سبيل الله، وليس المقصد، قتل العباد.. ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الابتداء بقتالهم قبل دعوتهم، ونهى عن قتل الشيوخ والنساء والأطفال والرهبان[1]، وأمر بمقاتلة الذين يقاتلون، ويصدون عن سبيل الله ويعتدون، وهذا تفسير عملي لقوله تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوَاْ إِنّ اللّهَ لاَ يُحِبّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾. [البقرة: 190]

كما يفسر هذا جلياً؛ ما جرى مع ابن تيمية وبعض العلماء الذين كانوا معه، حين رأوا قوماً من التتار يشربون الخمر خارج دمشق، فأنكر العلماء عليهم، فأنكر ابن تيمية على العلماء إنكارهم هذا، وقال: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس، وسبي الذرية، وأخذ الأموال فدعهم[2].

---

[1] البخاري (3015)، مسلم (1744)

[2] إعلام الموقعين (3-16)

فانظر إلى هذا الإمام كيف نظر إلى مقصد تحريم الخمر.. فأصاب –بهذا الفقه- مصالح، ودفع مفاسد.

ومع ذلك، نرى كثيراً من الدعاة والآمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، لا يعون مقاصد الأحكام، ولا يراعون غاياتها النبيلة.

فينقلب عندهم النصح إلى فضح، والستر إلى تشهير، والمواساة إلى تشفٍ، والمعالجة إلى انتقام.

فالمهم عنده؛ أن يأمر مجرد أمر، وأن ينهى مجرد نهي، دون النظر إلى المقاصد، أو العواقب، أو إلى ما أمره الله به، من أن يكون أمره ونهيه بالرفق والمعروف، كي تتحقق المقاصد المنشودة، والغايات المطلوبة.

ج- فقه المصالح والمفاسد:

لا ينفك حكم من أحكام الإسلام عن تحقيق المصالح، أو دفع المفاسد، أو تحقيق كليهما معاً، وبخاصة في مقام الدعوة الذي نحن بصدد الحديث عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها"

وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية، والمفسدة الشرعية، فقد يدع واجبات، ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع، كمن يَدَعُ الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعاً، ويَدَعُ الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ويرى ذلك من الورع..."[1]

إن هذا التأصيل والتمثيل من قِبَل هذا الإمام الهُمام..، ليكفي لكل ذي بصيرة عن إلقاء محاضرات، أو تسطير مجلدات.

إن غياب هذا الفقه - فقه المصالح والمفاسد- عند بعض الدعاة والناشئة، جعلهم يفعلون أموراً فيجلبون بها مفاسد.. ويفوتون مصالح.. وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً.

فكم من مفسدة أُحدثت باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكم من مصلحة فاتت باسم الإنكار على أهل البدع.

---

[1]- مجموع الفتاوى (193/30)، (512/10)

وانظر إلى حكمة النبي صلى الله عليه وسلم حين امتنع من قتل سيد المنافقين ابن أبي بن سلول، لتحقيق مصلحة سمعة الدعوة، وقال لعمر عندما طلب عمر منه قتله، قال صلى الله عليه وسلم: ((دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه))[1].

إن تحلي الداعية بهذا الفقه العظيم، يجعله يحصّل في دعوته مصالح عظيمة، ويدفع مفاسد كثيرة.

ويندرج تحت فقه هذا الباب: فقه بعض القواعد:

درء المفاسد أولى من جلب المصالح أو المنافع[2]

"عند تعارض مصلحتين يعمل أعلاهما وإن فات أدناها".

"إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضررا بارتكاب أخفهما"[3]، وهو ما يعبر عنه بعض الفقهاء بقولهم: "يختار أهون الشرين أو أخف الضررين".[4]

وللعلماء تقسيمات بديعة، وتفصيلات مفيدة في هذا الباب، ليس هاهنا محل ذلك، ولكن نذكر بعضها باختصار:

قال ابن القيم: لإنكار المنكر أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثاني: أن يقل وإن لم يزل بجملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.[5]

ومعرفة هذه الأحكام تقي من مفاسد كثيرة.

د- فقه المقامات:

المقصود بفقه المقامات: أن لكل شعبة من شعب الإسلام أحكاماً خاصة بها، ومقام يجب على المسلم الالتزام به، فثمة: مقام الولاية.. ومقام القضاء.. ومقام الجهاد.. ومقام الدعوة.. ومقامات أخرى.

ولكل واحد من هذه المقامات فقه خاص به، **فمقام** ولي الأمير في معالجة القضايا ليس كمقام القاضي، الذي يمثُل أمامه المذنب، وليس كمقام الداعية وهو ينصح المذنبين.

---

[1]- رواه البخاري (3518)، (4905)، (4907)، ومسلم (2584).

[2]- المجلة العدلية في الأحكام الفقهية، التي كانت الدولة العثمانية تصدرها للقضاة، المادة: 30

[3]- المصدر السابق، المادة: 28

[4]- المصدر السابق، المادة: 19

[5]- إعلام الموقعين (16/3)

وموقف المسلم مع الذمي (المعاهد) غير موقفه مع العدو الصائل.

وموقف المسلم مع الكافرين في الجهاد، غير موقفه معهم في الدعوة.

فإن اعتدى على المسلمين عدو ردوا عليه بالقوة، وإذا أُوذي المسلمُ نفسُه من الكافر نفسِه -وهو في مقام الدعوة- كان موقفه مغايراً تماماً لموقفه وهو في حال الجهاد.. إذ يجب على المسلم وهو في مقام الدعوة الصبر، والاحتساب، وكف اليد، أي: عدم الرد بتاتاً إلا بالقول الحسن والحكمة.

وهكذا تتفاوت الأحكام بتفاوت المقامات. وقديماً قيل: لكل مقام مقال.. وهاهنا يمكن أن يقال:

لكل مقامٍ حُكْمٌ وموقف.

وإذا عُلم فقه المقامات، عُلم فقه كثيرٍ من الآيات، الذي يظن من لا فقه عنده، أنها متعارضة أو منسوخة.

فمن هذا الباب: صنف من الآيات تأمر بالصبر والعفو.

كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [الكافرون]

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور** ﴾. الآية [الشورى: 43]

وقوله: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفّوَاْ أَيْدِيَكُمْ** ﴾. الآية [النساء: 77]

ومن ذلك؛ صنف من الآيات تأمر بالقتال والرد بالمثل.

كقوله تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ..** ﴾ الآية [البقرة: 190]

وقوله تعالى: ﴿ **الشّهْرُ الْحَرَامُ بِالشّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىَ عَلَيْكُمْ...** ﴾ الآية [البقرة: 194]

فإذا لم تُفهم هذه النصوص على ضوء فقه المقامات، ظنَّها ضعيف العلم، قليل الفقه: أنها متعارضة أشد التعارض، ولوقع المسلمون في أشد التناقض، ولفوتوا مصالح كثيرة، ووقعوا في مفاسد عظيمة.

وإذا توفر فقه المقامات، عُلم: أن أحكام الآيات الثلاث الأول (الصنف الأول) التي أمرت بالعفو والصفح، تكون في مقام الدعوة، وعندما يكون المسلمون بين أظهر الكافرين في حال السلم، وأن أحكام الآيتين الأخيرتين تكون في حال الجهاد.

وفي حال غياب -فقه المقامات هذا- عند الدعاة والناشئة، سيسقطون في حمئة التناقض، ووضع الأحكام في غير محلها، وتنفير الناس من الدين إذا ما استعمل العنف في مقام الدعوة، ونصب الداعية نفسه قاضياً صارماً، بدل أن يكون داعية رحيماً، فيصدر على الناس الأحكام، ويقسم عليهم الضلالة والهداية.

بل ربما سفك الدم الحرام، وكشف الستر المصون، وجر على المسلمين أذى كثيرًا ومصائب لا يعلمها إلا الله، وهو يستشهد بتلك النصوص ويضعها في غير مقامها، وهو يحسب أنه يمارس الدعوة إلى الله.

3 – مبادئ منهجية الاتصال الدعوي

المبدأ الأول: الإيمان قبل الأحكام:

المقصود أن تقدم الدعوة إلى الإيمان، بمفاهيمه وأصوله، على الدعوة إلى العبادات والأحكام، من حلال وحرام، في المأكولات، والملبوسات، والمعاملات، وتطبيق هذه القاعدة إنما يكون في بعض الحالات الدعوية، لا في كل مقام دعوي ولا في مقام التعليم والفقه، ويأتي تفصيل هذه الحالات.

إن الإيمان يدفع صاحبه إلى المسارعة إلى الامتثال للحكم، والاستجابة للطلب، دون تعنت ولا تردد، فعلاً كان أو تركاً، والقيام به بسهولة ويسر، ونشاط وشوق.

قال تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله...)) الآية، فقدم سبحانه الأمر بالإيمان على كل عمل.

وقال تعالى: ((قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة...)).

أي: ما دمتم آمنتم، وبنيت قواعد دينكم.. فابدؤوا بالأعمال فإنها من لوازم إيمانكم.

لأن الإيمان قاعدة الأعمال: كما هي الحال في قواعد البناء، إذ لا يمكن أن يقام بناء إلا على قواعد، وكذلك في الإسلام، لا تقوم الأعمال بلا إيمان، وإلا كان العامل منافقاً، وإن كان مؤمناً بلا أعمال كان **مرجئاً**.[1]

فإن الإيمان شرطٌ لقبول العمل، وزيادته تدفع صاحبها إلى الإقبال على العمل الصالح، والانتهاء عن العمل الفاسد بصدق، لأجل ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرهم بالإيمان في كل مناسبة، فمن ذلك قوله: ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه))[2]، وكذلك قال الله تعالى: { **فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ** } [الأنبياء: 94]

---

[1]- المرجئ من المرجئة: وهم طوائف؛ منهم من يقول: إن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان ولا تزيده ولا تنقصه ومنهم من يقول: الإيمان هو النطق باللسان فقط ولا علاقة للقلب بذلك ومنهم من يقول: الإيمان هو معرفة الله فقط ولو لم يسلم العبد ولو لم يؤمن بالنبي، والفقرتان الأخيرتان ضالتان بل الأخيرة كافرة.

[2] البخاري (1901،38)، مسلم (760)

فمن أقبل على الطاعة، بإيمان مسبق، أقبل عليها بحب وشوق، وفارقها على كره.. ومن أقبل على الطاعة، بغير إيمان أو بضعف فيه، أقبل عليها على كره، وأداها بمشقة، وفارقها على فرح.

ويظهر هذا جليا في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يتبعهم من الصالحين في خشوعهم في عباداتهم، وشوقهم لها.

وقد مكث رسول الله في قومه ثلاثة عشر سنة، يدعو إلى الإيمان، ويربي أتباعه على زيادته، دون أن يتعرض لمعظم الأحكام، أو ينهى عن معظم المحرمات، وكان بعض أصحابه يمارسون ما عُدّ بعد ذلك من الكبائر، كالخمر والميسر وما شابه ذلك، ولم ينههم عنها، قبل أن يتوطن الإيمان في قلوبهم.

فلما وقر الإيمان في القلوب، وذلت لبارئها النفوس، أمرهم بالعبادات.. ثم بين لهم أحكام المعاملات.. ونهاهم عن المحرمات.

ولم يترل تحريم الخمر إلا بعد ثلاث سنوات خلون من هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

ولما نزل تحريمه، سارع المسلمون إلى الاستجابة، لما سبق فيهم من الإيمان، فعن أنس قال: كان لنا خمر غير فضيخكم هذا الذي تسمونه الفضيخ [1]، فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حرمت الخمر، قالوا: أهرق هذه القلاس يا أنس، قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل. [2]

وقصة نساء الأنصار حين نزول آية الحجاب مشهورة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأُول لما أنزل الله: { وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَىَ جُيُوبِهِنّ } [النور: 31]، شققن مروطهن فاختمرن بها)). [3]

وكل هذه الاستجابات، كانت لسبق الإيمان الأحكام، ولو أنهم أمروا باجتناب المحرمات قبل الإيمان لما أطاعوا.

فقد قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها..: إنما نزل أول ما نزل منه (أي القرآن) سورة من المفصَّل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد

---

[1] الفضيخ: شراب يتخد من البسر (التمر قبل أن يصبح رطباً ويسمى بلحاً) وحده من غير أن تمسه النار. [لسان العرب، مادة: فضخ]

[2] رواه البخاري (4617)، ومسلم (1980).

[3] رواه البخاري (4758، 4759)

نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب: ((بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)).

و لما رأى ابن عمر إعراض الناس عن الأحكام، وعدم العمل بالقرآن، رغم حفظهم له، علل ذلك بمخالفة مضمون هذه القاعدة، وأن الأحكام سبقت عند هؤلاء الإيمان، فلم يعملوا بالأحكام حق العمل، فقال رضي الله عنه: ((لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فنتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها.. كما تعلمون أنتم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين قائمته إلى قائمته، ما يدري ما أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه فينثره نثر الرمل))[1].

إن لتطبيق هذه القاعدة حالات وصوراً خاصة بها من ذلك:

الصورة الأولى: كون المدعو غير مؤمن.. فهذا يدعى إلى الإيمان بالإجمال، ومقتضياته: من التوحيد والإذعان، والتسليم والانقياد، ويدعى إلى أصول الإسلام العامة.. قبل دعوته إلى العبادات، وفروع الدين، والحلال والحرام.

فإن استجاب؛ تُدرج معه في تبليغه الأحكام -كما سيبين في باب التدرج - مع الاستمرار في الجرعات الإيمانية، ليزيد إيمانه. وليس من الحكمة في شيء، دعوته أو مناقشته في بعض الأحكام الإسلامية، وبخاصة الفرعية منها ؛ كحقوق المرأة، والحجاب، والإرث، وهو كافر بالأصل كله.

غير أنه يجوز ذلك حيناً على سبيل بيان محاسن الإسلام، كعدالة الإسلام في توزيع الإرث، واحترام المرأة، وفوائد بعض الواجبات كالحجاب، ومضار بعض المحرمات، ولكن على سبيل الإجمال.

الصورة الثانية: كون المدعو مسلماً، غير أن فيه جهلاً، وتقصيراً وعصياناً، فأمثال هؤلاء يدعون إلى زيادة الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والتفصيل في مقتضيات الإيمان، ولوازمه، من الاستجابة والتسليم، وبالترغيب والترهيب.. قبل أن يقال له: هذا حرام، وهذا حلال، فهو يعلم ذلك، والمشكلة ليست في علمه بذلك، وإنما المشكلة في قلة إيمانه، وضعف استجابته، وإصلاح هذا لا يتم بمجرد إخباره عن حكم الشيء، بل لا بد من معالجة أسباب ذلك، وهي هاهنا ضعف الإيمان.

---

[1] رواه البيهقي (120/3)، وابن عساكر (160/31)، والحاكم (36/1) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، الدقل: التمر الرديء.

إن تقرير هذه القاعدة في منهج الداعي، لا يعني ألا يخبر الناس بالحلال والحرام، وإنما يعني: أن يقدم الإيمان على التحريم والتحليل في مقام الدعوة.

والقاعدة قد يكون لها استثناء، فقد يلزم أحياناً تقديم بيان بعض الأحكام إذا تعيّن ذلك، أو لزم تحذير المدعو مباشرة من المحرم الذي يتعاطاه.

لكن القاعدة تقرر: أن الأصل في الدعوة البدء بدعوة الناس إلى الإيمان، والقناعة والتسليم. ثم بعد ذلك يدعون إلى الأحكام.

المبدأ الثاني: البلاغ والتعليم، قبل الحكم والتنفيذ.

إن المقصود من هذه القاعدة المنهجية: أن يتولى الداعية بلاغ الناس وتعليمهم، قبل أن يصدر الأحكام عليهم.

قال تعالى: { **لَقَدْ مَنّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مّبِينٍ** } [آل عمران:164]

وقال سبحانه: { **فَهَلْ عَلَى الرّسُلِ إِلاّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } [النحل:35]

وقوله: { **إنا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنّاسِ بِالْحَقّ فَمَنِ اهْتَدَىَ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلّ فَإِنّمَا يَضِلّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ** } [الزمر: 41]

فالرسل والأنبياء والدعاة من بعدهم **لم يوكلوا على الناس، وإنما وكلوا على دعوة الناس**، وفرق كبير بين الأمرين.

ورغم صراحة هذه النصوص في تحديد مهمة الداعية، نجد كثيراً من الدعاة يظنون أنهم مسئولون عن البشر، إن لم يهتدوا، وعن الناس إن لم يستجيبوا، وأنهم سيتحملون هذه المسئولية ما لم يحكموا عليهم، وينفذوا الحكم، رغم صراحة قوله تعالى: { **إِنّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ** } [البقرة:119]

فبهذا يتبين أن الأصل في مهمة الدعاة البلاغ والتعليم، والإعراض قبل الحكم والتنفيذ.

خلال هذه القرون التي مرت على المسلمين وقع جهل عظيم في المسلمين في عقيدتهم وعبادتهم وأحكام معاملاتهم فوقعوا في الشرك والانحراف والحرام والبدع وانحرفت بهم الأهواء.

فهم الآن أحوج إلى التعليم من أي شيء آخر. وأما ما يفعله بعض الدعاة من إصدار الأحكام على أعيان المسلمين الجهلة: بالكفر والشرك والابتداع، دون تعليمهم، وإقامة الحجة عليهم.. بدعوى أنهم في بلاد المسلمين، وأن وجودهم فيها يغني عن إقامة الحجة عليهم، فليس من الحكمة في شيء.

كما ينبغي أن يعلم: أن في الخروج عن هذه القاعدة مفاسد عظيمة منها:

انشغال الداعية والناشئ عن التعلم والتعليم، بالحكم والقضاء، فلا يتعلم ولا يعلم.

الانشغال بالجدل عن العمل، مما يزيده جهلاً على جهله، وقساوة قلب، وجفاء طبع، وبذاءة لسان، وتنفير للناس.

وتتجلى الحكمة في هذه القاعدة؛ أن المخالف لا بد أن يكون أحد اثنين: إما جاهل متكاسل، وإما قاسي القلب معاند ودعوة هذين الصنفين لا تصلح بالحكم عليهما.

فأما الجاهل: فإن حكم عليه وهو لا يعلم حكم ما يخالف فيه، كان الحكم ظلماً إذا لم يبين له و لم يُعّلم.

ثم إن الجاهل: إذا ما حكم عليه –وهو لا يعلم– كان ذلك الحكم منفراً له عن الدعوة... إذ يفاجأ بأنه كافر أو فاسق. أو مبتدع وهو يظن أنه من المهتدين.

وأما التبليغ والبيان فيدفعه إلى الإنصات ثم المعرفة ثم الهداية إن شاءها الله له.

وأما قاسي القلب المعاند: فإن الحكم عليه لا يزيده إلا عناداً ونفوراً.. وأما التعليم فيفتح الله به قلبه، ويخفف من عناده..

فبهذا الواقع تتبين الحكمة البالغة من هذه القاعدة.

فالحكم لا يزيل جهلاً ولا يهدي ضالاً، والبلاغ والتعليم هو الذي يزيل الجهل ويهدي الضال.. فهل من معتبر.

المبدأ الثالث: البدء بالأصول قبل الفروع.

والمقصود بالأصول: ثوابت الإيمان، وأصول الدين، وقواعده العامة، والمعاني الكلية لها: كتوحيد الربوبية والألوهية، وصفات الله بالإجمال، كما وردت في القرآن، ومعنى الشرك والعبادة، والسنة والإتباع والابتداع، وبيان مقتضيات هذه الأصول وأسسها، وشروطها ونواقضها.

والمقصود بالفرو: فروع المسائل، ولو كانت في العقيدة، وحوادث الأعيان، وحكايات الأحوال، والخلافات الفقهية والعقدية بين أهل السنة، وما شابه ذلك [1] كرؤية الرسول ربه ليلة المعراج، هل هي رؤية حقيقة أم منامية؟ والحكم على بعض الأمور من كونها سنة أو بدعة، كعدد صلاة التراويح، وصلاة التسابيح.

تأتي أهمية هذه القاعدة من كون التأصيل أساساً للتمثيل، كأساس البيت للجدران والسقف.. وهل تقام الجدران؟ ويزين البيت؟ ويفرش الأثاث؟ من غير أساس؟ فسرعان ما ينهار.

قال تعالى: { **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السماء * تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأمْثَالَ لِلنّاسِ لَعَلّهُمْ يَتَذَكّرُونَ** } [إبراهيم: 24-25]

ومن الواضح في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم العلمية، أنه كان يعلم أصحابه الأصول، ويدعوهم إليها، قبل أن يعلمهم فروع المسائل.

ففي باب الشرك أَصَّلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصلاً واضحاً، عندما سئل عن أعظم الذنب، فقال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك))[2]، فقد أغنى هذا التعريف عن مجلدات.

وفي باب الابتداع، أصل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصلاً عظيماً، فقال صلى الله عليه وسلم: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[3].

فهذا التأصيل قبل أن يحكم على كل بدعة، ومما أَصَّله النبي صلى الله عليه وسلم في باب الشهادة، عندما سئل عن الشهيد، فقال: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[4].

---

[1] ويدخل في عموم التمثيل المسائل التالية:

الأولى: الخلافات الفقهية فلا يجوز للداعية أن يجعل الخلافات الفقهية محوراً لدعوته، ولا دعوته محلاً لنصر مذهبه، فالمسائل الفقهية وبخاصة المختلف فيها، ليست من التأصيل في شيء، ولا محل لها في مجال الدعوة.

الثانية: فروع مسائل العقيدة، وبخاصة المختلف فيها بين أهل العلم.

وكثير من الدعاة يظنون: أن كل مسألة في العقيدة هي محل دعوة، وأنها أولى من كل المسائل الأخرى في دعوته، بدعوى: أنها من العقيدة فيقدمها في دعوته، ويحْدِث بها اشغالاً للناس و ربما فتناً.

ومن ذلك: عدد أصابع الرحمن، حديث أن الله خلق آدم على صورته، مسألة خلق العرش أولاً أم القلم .

وهذه المسائل وما شابها – وإن كانت من العقيدة – ولكن ليس محلها الدعوة إلى الله تعالى، وذلك لأنها:

أولاً: من فرعيات العقيدة، ثانياً: معظمها محل خلاف بين أهل العلم، ثالثاً: يدفع كثيرٌ من هذه المسائل العامة إلى التكذيب بها، أو استهجانها، وقد قال علي: ((حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله)). سبق تخريجه انظر ص (14)

[2] رواه البخاري (4477، 4761، 6001، 6811)، ومسلم (86)

[3] رواه البخاري (2697)، ومسلم (1718)

[4] رواه البخاري (123،3126،7458)، ومسلم (1904).

وأصل لهم في باب الخمر أصلاً فقال: ((كل مسكر خمر، وكل خمر حرام))[1].

لذا استوعب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الأصول في العقيدة والعبادات والمحرمات، مما سهل عليهم الحكم على الفروع، حيثما وجد، وكيفما جاء وممن فعله.

فالصواب: أن يبين الداعية معنى الأصل، الذي تتعلق به المسألة، التي يريد بيانها، أو النهي عنها، تمهيداً للكلام عن المسألة.

المبدأ الرابع: الجمع بين الترهيب والترغيب. الوعد والوعيد.

من منهجية الاتصال الدعوي أن يوازن الداعية في دعوته بين ترهيب الناس وتخويفهم بالله، وبما يكون من عواقب ذنوبهم في الدنيا، وما عليها من العذاب الشديد في الآخرة، وبين ترغيبهم بما عند الله عز وجل، من الجزاء العظيم، والنعيم المقيم، وما يفتح الله لهم من الخير والبركات والنصر والتمكين في الدنيا، مما يرغبهم بالإقبال على الله، وطاعته والتوبة إليه ومحبته.

وينبغي للداعية أن لا يقتصر على جانب دون جانب، فإن بدأ بالترهيب فينبغي عليه أن يختمه بالترغيب، والعكس بالعكس.

قال الله تعالى: { **مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فيها أَنْهَارٌ مّن ماء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مّنْ عَسَلٍ مّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مّن رَّبِّهِمْ** } [محمد: 15]، فبعد هذا الترغيب الجميل، أعقبه بما يخوف النفوس، ويرعب القلوب، فقال: { **كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُواْ ماء حَمِيماً فَقَطَّعَ أمعاءهم** } [محمد: 15]

ولما ذكر الله العذاب الشديد في سورة الحج بقوله: { **هَـذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كلما أَرَادُوَاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ** } [الحج:19-22].

أعقب هذه الآيات الصارخة بالعذاب، والمرعبة للقلوب، بآيات تنطق بالنعيم المقيم، والاطمئنان برحمة الله { **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** } [الحج: 23]

---

[1] رواه مسلم (2003)

لذلك جاء منهج الترغيب والترهيب في القرآن والسنة متوازناً في هذا الجانب توازناً بديعاً.

المبدأ الخامس: مخاطبة الناس بما هو من شأنهم، وبما ينفعهم، وبما يقدرون عليه،

على الداعية قبل أن يدعو الناس، أن يحدد حاجتهم، وما هو من شأنهم، ثم يخاطبهم به.

فإن لكل مدعو أو مدعوين حاجتهم الدينية، فمنهم من يحتاج إلى توضيح في العقيدة، ومنهم من يحتاج إلى بيان في العبادات، ومنهم من يحتاج إلى أحكام في المعاملات، ومنهم من يحتاج إلى وعظ وإرشاد و... وهكذا.

وليس من الحكمة في شيء، أن يخاطب الناس بما لا يحتاجون إليه، وبما ليس من شأنهم، كمن يزج الناس في القضايا السياسية، وهم لا يعرفون عقيدة، ولا يحسنون عبادة.

أو يقحمهم في شؤون الولاية، وسياسة الدولة، وهم أضعف من إصلاح شؤونهم الخاصة، فهل من شأن العامة تقرير شؤون الدولة.. وسياستها العامة والخارجية.. مثلاً؟

فشأن المدعوين من الكفار؛ دعوتهم إلى الهداية والإيمان.. وشأن العصاة من المسلمين دعوتهم إلى التوبة.. وشأن من يقع في الشرك دعوتهم إلى تصحيح العقيدة، وإخلاص التوحيد.. وشأن من لا يحسن العبادات تعليمهم العبادات.. وشأن الشعوب التي تحررت من نير الكفر بيان أصول الإيمان، وأركان الإسلام.. وشأن العقلانيين والعلمانيين دعوتهم إلى مميزات الإسلام، من الشمول والكمال.. ومبادئه من التسليم لأخبار الله، والإذعان لأحكامه.. وشأن المبتدعة بيان أهمية الإتباع، وخطورة الابتداع.. وهكذا شأن الداعية الحكيم، ينظر إلى حاجات المدعوين ويلبيها بدعوته وحكمته.

المبدأ الخامس: مخاطبة الناس بما يناسب مستواهم العقلي والثقافي والعلمي.

من المعلوم: أن لكل مدعو مستوى عقلياً وعلمياً، ويشترك الناس بعامة في بعض البيئات بمستوى متقارب، في العلم والتفكير، فعلى الداعية أن يراعي هذه المستويات، ويخاطبهم بما يناسبها فمثلاً ؛ لا ينبغي له أن يتكلم في عامة أهل المسجد عن قضايا الذرة تفصيلاً، بدعوى وجود الإشارة إلى هذا العلم في القرآن، أو يتكلم معهم في العقلانيات والفلسفة وعلم الكلام، أو يحدثهم قي قضايا علمية رفيعة المستوى، لا يفهمونها، كمسألة هل الاسم هو المسمى، وهل العدد هو المعدود كالخلاف بين العلماء في بعض قضايا العقيدة، أو في دقائق مسائل البيوع، أو في صور من صور النكاح... وما يلقى في بعض الإذاعات من مثل هذا خطأ دعوى واضح يتجافى الحكمة تجافياً كبيرًا.

بل يخاطبهم وما يتناسب مع جميع الحضور والمستمعين، فيشرح لهم الآيات الأم، والشاملة[1]، أو يعلق على القصص القرآنية، أو يشرح لهم الأحاديث النبوية الجامعة، أو يبين لهم الأحكام الكلية، حتى يتناسب خطابه والجميع.

وقد قال علي: ((**حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله**)).

المبدأ السادس: التدرج،

المقصود بالتدرج: الانتقال بالمدعو من الأسهل إلى الأصعب، ومن كلية إلى أخرى، ومن الكليات إلى الجزئيات، ومن الدعوة النظرية إلى الدعوة العملية التطبيقية.

والانتقال به في باب المحرمات، من محرم إلى آخر.. ومن تحريم الكبائر إلى تحريم الصغائر، حتى يصل المدعو إلى مرتبة التكيف مع كل توجيه، والانصياع لكل أمر.

والتدرج سنة كونية، وسنة شرعية، لأنها تتوافق والفطرة التي فطر الله الناس عليها.

فإن طبيعة البشر، تأبى قبول الأحكام جملة واحدة، أو الامتناع عن المحرمات مرة واحدة، وذلك لما ألفته النفس واعتادت عليه من العادات في جاهليتها، واستثقال ما هو جديد من العبادات، لذلك يصعب على النفس ترك ما ألفت عليه من العادات، ويشق عليها تجنب ما اعتادت عليه من الشهوات، لذلك جاءت سنة التدرج الشرعية، موافقة تماماً لسنة الله الكونية.

لذلك سَنَّ الله سبحانه التدرج مع عباده في كثير من القضايا.. في المأمورات، وفي المنهيات.. وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من أوضح ما يبين قضية التدرج بالواجبات، ما كان من سيرة الأنبياء في مسلكهم الدعوي، فقد كانوا يدعون الناس إلى توحيد الخالق، ونبذ الشرك، دونما الأمر بكثير من العبادات، ولا التعرض إلى كثير من المحرمات التي يتعاطاها المدعوون.

قال تعالى: { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الْطَّاغُوتَ** } [النحل: 36].

1- الآيات الأم هي الآيات التي تتضمن حكماً محكماً ومهماً وعاماً، كقوله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وألوي الأمر منكم...)).

وقوله تعالى: ((واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى...)).

والآيات الشاملة: التي فيها أكثر من حكم عام ويشمل كثيراً من المسائل التي تهم كل الناس، كقوله تعالى: ((قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا بالله شيئا...)) وقوله تعالة: ((وقل رب أعوذ بك من همزات..))

فإذا استقر الإيمان في القلوب، وخلصت النفوس بالتوحيد، نقلت إلى أداء الأركان، واحداً بعد الآخر.. أي: إلى العبادات، عبادة تلو عبادة.

وإذا كان الإيمان هو القاعدة، فإن العبادات هي مثبتاتها، فهي تثبت الإيمان وتزيده، وأثناء التدرج بالعبادات، يكون التدرج بالانتهاء عن المحرمات، ذلك لأن العبادات تعين على ترك المنكرات.

قال تعالى: { **إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىَ عَنِ الفحشاء وَالْمُنْكَرِ** } [العنكبوت: 45].

وقال تعالى: { **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا** } [التوبة: 103].

والتدرج يكون من كلية إلى كلية، كما يكون في الكلية نفسها من حال إلى حال.

وكما كان التدرج في المأمورات من توحيد وعبادات، كان التدرج كذلك في تحريم المحرمات، فلم تحرم المحرمات في بدء الدعوة، ولا حرمت دفعة واحدة، بل كانت تحرم واحدة تلو الأخرى.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتعاطون بمكة الكبائر؛ من خمر وميسر وغير ذلك، مما عده الإسلام بعد ذلك من الموبقات، فقد بدأ الإسلام بتحريم الشرك، ثم الكبائر، ثم الصغائر.

قال تعالى: { **قُل لاَّ أَجِدُ فِي ما أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرّماً عَلَىَ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنّ رَبّكَ غَفُورٌ رّحِيمٌ** } [الأنعام:145]

قال القرطبي: أعلم الله عز وجل في هذه الآية بما حرم.. والآية مكية، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة، وزيد في المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والنطيحة والخمر وغير ذلك، وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير)) [1].

بل بلغ الأمر في هذا الباب إلى أن يُتدرج بالمحرم نفسه، من حال إلى حال، والتدرج في تحريم الخمر أشهر من أن نذكره هنا.

فعن عمر بن الخطاب قال: لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاء، فنزلت الآية التي في البقرة { **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فيهما إِثْمٌ كَبِيرٌ** } الآية [البقرة:219]، قال: فدعي عمر فقرئت عليه، قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاء، فنزلت الآية التي في النساء: { **يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىَ** } [النساء: 43] فكان منادي رسول الله صلى

---

[1] تفسير القرطبي (115/7)

الله عليه وسلم إذا أقيمت الصلاة ينادي: ألا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاء، فنزلت هذه الآية { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ } [المائدة: 91]، قال عمر: انتهينا. [أبو داوود 3670، والنسائي 286/8، والترمذي 3049].

ولما كان التدرج بتحريم الزنى مجافياً للحكمة، حُرم عليهم الزنى، وسكت عن متعة النساء، ثم حرمها.. ثم أباحها في ظرف معين.. ثم حرمها إلى الأبد.

فإن قيل: إن التدرج كان قبل نزول الأحكام، وفرض العبادات، وقد تمت الأحكام، وفرضت العبادات، فلا تدرج اليوم.

قيل: أولاً: إن التدرج طريقة دعوية، ومنهج مرحلي، لا تنسخ كأحكام الحلال والحرام المعرضة للنسخ.

ثانياً: إنه لا دليل على نسخ التدرج مع كل من يحتاجه، ودعوى تمام الشريعة، لا تتعارض مع بقاء سنة التدرج في بعض الأحوال، ومع بعض الأعيان.

ثالثاً: إن التدرج كان لعلة، فإذا زالت زال، وإذا وجدت وجد. وعلته [وجود مجتمعات جاهلية تدعى إلى الإسلام. أو وجود مسلمين حديثي عهد بجاهلية]، فهؤلاء يشرع في حقهم التدرج ؛ ولو بعد ثبوت الأحكام الشرعية، فلو قدر أن رجلاً يريد أن يسلم، واستثقل ترك الخمر، فلا مانع أن يسلم، ولو بقي على ذنبه، أو استثقل الحج، فيقال له أسلم، ثم يكون بعد ذلك ما يكون.

أو أرادت امرأة أن تسلم على أن لا تتحجب، فيقال لها: أسلمي، ولو بقيت سافرة.

وأراد رجل أن يسلم، فقيل له: إن الإسلام يضرب عنق من ارتد، فلم يسلم.

بل يجب أن يفتح لهم باب الإسلام على ما هم عليه، ثم يُتدرج معهم.

والتدرج مبدأ في منهاج الدعوة إلى الله تعالى، غير منسوخ، يعمل به حسب الأحوال والمصالح، لكن؛ قد تنسخ بحق قوم دون قوم.. وامرئ دون آخر فقد يكون التدرج في مسلمين يمرون في ظرف خاص، كما هو الحال مع المسلمين الذين كانوا يخضعون للحكم الشيوعي، وغيرهم ممن جهلوا دينهم، ودب فيهم ما دب من الشركيات، وانتشر ما انتشر فيهم من البدع والمحرمات.

ومثل هذه المجتمعات، لم تنعدم عبر التاريخ، حتى في عصرنا، فقد وجد في مثل هذه المجتمعات مسلمون، لا يعرفون أركان الإسلام، فكيف بأدائها وأحكامها.

ووجد منهم من لا يعرف من الإسلام إلا أنه يحرم أكل الخنزير، ولا يعلم توحيداً، ولا عبادة فضلاً عن حلال وحرام.

فليس من الحكمة؛ نقل مثل هؤلاء إلى الإسلام بجملته، بدعوى أنهم مسلمون، وأن الشريعة كملت، بل لا بد من أخذهم بقاعدة التدرج.. التوحيد فالعبادات، واحدة بعد الأخرى.. فالنهي عن المحرمات.. الأعظم فالأعظم حسب أحوال العباد.

وكذلك حكم من أراد دخول الإسلام، فلا تلقى عليه العبادات والمنهيات دفعة واحدة.

وقد سبق ذكر حديث معاذ لما أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فقد أمره بالتدرج بعد ثبوت الأحكام، ومن أروع ما يستدل به على هذا حدثان في عهد النبوة.

الأول: (حديث وفد ثقيف)، عن وهب قال: سألت جابر عن شأن ثقيف إذ بايعت، قال: اشترطت على النبي صلى الله عليه وسلم أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يقول: ((سيتصدقون، ويجاهدون إذا أسلموا)).[1]

وعن نصر بن عاصم عن رجل منهم: أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسلم على أنه لا يصلي إلا صلاتين فقبل ذلك منه [2].

الثاني: كان أبو حذيفة رضي الله عنه قد تبنى سالماً قبل تحريم التبني، فلما نزلت آية الحجاب كبر على أبي حذيفة دخوله على زوجته، وصعب عليه مفارقته، فأفتاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بإرضاعه.

فعن عائشة رضي الله عنهما قالت: جاءت سهلة بنت سهيل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله: إني أرى في وجه أبي حذيفة من دخول سالم (وهو حليفه) فقال النبي صلى الله عليه وسلم ((أرضعيه)) قالت: وكيف أرضعه؟ وهو رجل كبير، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ((قد علمت أنه رجل كبير)) [3].

ففي هذين الحدثين، دليل واضح على بقاء حكم التدرج، لمن دخل في الإسلام وبعد ثبوت الأحكام في الدين، فإن المسألة لا تتعلق بأصل دين الإسلام، وإنما تتعلق بدين الرجل نفسه، و حاله، وقوة إيمانه، ومدى استجابته.

فلو أن عائلة غير مسلمة اليوم ولديها متبنى، وأرادت الإسلام، وصعب عليهم مفارقة المتبنى، قيل لهم: أرضعوا المتبنى، وليبق معكم.

---

[1] رواه أحمد (341/3)، أبو داود (3025)، دلائل النبوة للبيهقي (306/5)، وانظر الصحيحة للشيخ الألباني – رحمه الله – (1888)

[2] رواه أحمد (24/5، 25،363)، الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (941)، وأبو نعيم كما في أسد الغابة (446/6)

[3] رواه مسلم(1453)

ولو أن امرءاً قال: أسلم وأؤدي بعض العبادات دون بعض، ولا أنتهي عن المحرمات كلها، أو بعضها، لقيل له: أسلم.. لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

طبعت النفوس على استثقال التكاليف، قال تعالى: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ } [البقرة:216].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((حفت الجنة بالمكاره))[1].

كما طبعت النفوس على صعوبة ترك ما ألفته من الشهوات والملذات، ومفارقة الأصحاب.

قال صلى الله عليه وسلم: ((وحفت النار بالشهوات))[2]...

فإذا نقلت النفس من حال إلى حال، ومن حكم إلى حكم كان ذلك أدعى للاستجابة، وأسهل لترك المحرمات، وفعل الطاعات.

كما أن الإيمان يزيد كلما ازداد المسلم عبادة وصحبة للمؤمنين.

والإيمان يسهل الطاعات بل يشوق لها، ويكره المحرمات، وينفر منها.

وهذا هو سر تدرج النبي صلى الله عليه وسلم مع وفد أهل الطائف وغيرهم، فقد كانوا يحبون أن يسلموا، ولكن استثقل بعضهم خمس صلوات، وغيرها، لضعف إيمانهم، وقربهم من جاهليتهم، التي لا تكليف فيها إلا الشهوات والهوى، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام بما اشترطوا، إلى حين استقرار الإيمان في قلوبهم، بأدائهم بعض العبادات، وبصحبتهم المسلمين، وبسماعهم القرآن الكريم، وحضورهم دروس العلم، فإن هذا سيزيد في إيمانهم، وسيزيل جهلهم، الأمر الذي يدفعهم إلى تصحيح وضعهم بأنفسهم، وهذا ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ((سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا..)) وهذا ما كان.

إن تقرير قضية التدرج في منهج الدعوة؛ لا يعني: إسقاط الواجبات، أو إباحة المحرمات.

فالواجب واجب إلى قيام الساعة، والمحرم محرم إلى قيام الساعة.

ولكن التدرج هو مبدأ في المنهج الدعوي، يخص الداعية، لينقل المدعوين من حال إلى حال، لا أن يبيح لهم ما حرم الله، ويسقط عنهم ما أوجب الله. ويتضح هذا في صورتين:

الأولى: صورة من كان مسلماً، ويعيش بين المسلمين والعلماء، قد عرف التوحيد والشرك، والحلال والحرام، فهذا ليس له في التدرج شأن ولا شيء.

---

[1] رواه مسلم (2822)

[2] المصدر السابق

الثانية: صورة من كان يريد الإسلام، أو هو حديث عهد بجاهلية، لا يعرف توحيداً ولا شركاً، وحلالاً ولا حراماً فهذا الذي شرع في حقه التدرج، ولا يحاسب إلا على ما بلغه، وأقيمت الحجة عليه فيه.

ويلحق هذه الصورة، من كان غارقاً في جهله، غائصاً في ذنوبه، فيستدرج إلى الخير درجة درجة، وينقذ من الضلال دركة دركة.

فالتدرج مبدأ في المنهج الدعوي، لا مذهب فقهي.

فمن عرف الحرام وواطأه، أثم، ومن ترك الواجب وهو يعلمه فقد عصى، سواء تُدرج معه أم لم يتدرج.

إن غياب هذا المبدأ من منهج الداعية، فضلاً عما فيه من مخالفة لسنن الله الكونية، وسننه الشرعية، فإن فيه اصطداماً مع واقع ليس من ورائه إلا الفشل والنفور..، فشل الداعية.. ونفور المدعوين.

المبدأ السابع: الدعوة إلى الله ودينه، لا إلى الأحزاب ورجالها:

إن الدعوة تعني: الدعوة إلى الله وحده، وإلى دينه بعامة، وإلى إتباع رسول الله دون غيره.

والدعوة إلى الله تعالى؛ أكبر من أن تحصر في دعوة إلى حزب أو جماعة، أو إلى رجل أو رجال، أو شيخ أو شيوخ.. مهما كانوا، أو إلى مذهب، أو طريقة غير ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، ومن تبعهم بإحسان.

والدعوة إلى الإسلام؛ أجل من أن تنحصر حول خلاف عقدي غير مكفر، أو خلافات فقهية، أو اجتهادات علمية، أو قضية جزئية.

بل هي: دعوة إلى مبادئ وكليات.. لا إلى رجال وأحزاب.. دعوة إلى عبادة الله وحده، والتمسك بدينه، وإتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: { **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقّ**... } [الرعد:14]، فليست لأحد دونه دعوة، كائناً من كان.

فمن دعا إلى غير كتاب الله تعالى، وإلى غير سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإلى غير منهج الصحابة، كانت دعوته دعوة حزبية مردودة، أو طريقة مرفوضة.

وقال تعالى: { **مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتّقُوهُ وَأَقِيمُواْ الصّلاَةَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الّذِينَ فَرّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً كُلّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** } [الروم:32]

المبدأ الثامن: الواقعية:

إن من أجمل ما اتصفت به دعوة الإسلام وأعظمِه: الواقعية في التصور.. الواقعية في الطرح.. الواقعية في المعالجة.. الواقعية في التعبد.

وكيف لا يكون ذلك، وقد أنزله من خلق الخلق، ويعلم حالهم وما يحتاجون إليه. قال تعالى: **{ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللّطِيفُ الْخَبِيرُ }**. [الملك: 14] أي لا يأمر المخلوق إلا بما يناسبه، وبما يناسب واقعه، لما يعلم من طبيعته.

وقال تعالى: **{ لاَ يُكَلّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَهَا }**. [البقرة: 286]

والمقصود بالواقعية هاهنا: فهم الواقع على حقيقته، ومعالجة ذلك معالجة شرعية متوافقة مع كل ظرف، ومتجانسة مع كل حدث، ومتلائمة مع كل حال وواقع.

والواقعية تعني كذلك: أن لا نكون خياليين في أذهاننا، حتى إذا ما نزلنا ساحة الواقع صُدمنا.. ثم فشلنا.

إن عدم واقعية بعض دعاتنا، جر عليهم وعلى المسلمين مشكلات كثيرةً، ومصائب جسيمة، وتقصيرًا في الأداء، ثم عجزًا وفشلاً في الدعوة إلى الله.

إن الذين يطلبون الكمال في الدعوة، كالمُنْبَتِّ لا أرضاً قطع، ولا ظهرًا أبقى.

إن على الدعاة والناشئة، أن يدركوا أن البشر لن يكونوا ملائكة أبداً، وإنه من ظن أن العباد سيهتدون بموعظة أو موعظتين.. أو بترهيب أو ترهيبين.. فقد طلب المحال.

إن من المعلوم في دين الله، أن الله لم يوجب الكمال على العباد، لا كمالاً في الإيمان، ولا كمالاً في العمل.. ولا في شيء غير هذا.

فعن أبي هريرة، قال صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم)).[1]

وقد وُجد في الصحابة من وقع في الذنوب، وهم بشهادة القرآن خير أمة أخرجت للناس.

وإذا كان بعض الأنبياء وقع في هفوة، كآدم عليه الصلاة والسلام، أفنطلب من أبنائه أن يكونوا معصومين.. بل يقع منهم هفوات.. بل بليات.

إن الانطلاق من تصور صحيح واقعي لأحوال الناس وظروفهم، ومعرفة صحيحة لما يريده الله منهم، يجعل المسلم بعامة، والداعية بخاصة موفقاً في خطابه، مثمراً في دعوته.

---

[1]- رواه مسلم (2749) وغيره.

وليس ثمة مانع من أن يسعى الدعاة إلى طلب الكمال المشروع، والمعقول، ولكن عليهم أن يغضوا الطرف عن المحاسبة عن الكمال.

ثانيا- الاتصال والاتصال الدعوي:

تعريف الاتصال هو: "نقل وتوصيل أو تبادل الأفكار والمعلومات بالكلام أو الكتابة أو الإشارات".

قاموس **أوكسفورد**

(" إن **الاتصال** كمفهوم عام يمكن تحديد مضمونه في **الرموز وأنظمة والإشارات**، ولكننا إذا رجعنا إلى التراث النظري المعالج لهذا المفهوم فإننا نجد مجال هذا الأخير أوسع من ذلك بكثير.

فكلمة **الاتصال** بالرغم من تداولها الواسع إلا أنها تحمل معان مختلفة عديدة، فقد نستعملها لنعني بها مجال الدراسة الأكاديمي أو النشاط التطبيقي الملازم له، أو بوصفها علما أو فنا أو علاقات إنسانية أو وسائل اتصال جماهيرية أو حسابات آلية شخصية أو إرشادا نفسيا، كما أنها قد تعبر عن عملية هادفة مقصودة أو طبيعية تلقائية، الخ.

وقد ساهم اهتمام المختصين من مجالات دراسية مختلفة (علم النفس، اجتماع، سياسة، أنثروبولوجيا، إدارة ...) في زيادة المعاني المختلفة لكلمة الاتصال.

ولكن هذا التنوع لم يحل دون جعل كل هذه الطرق والمجالات والمعاني تركز أساسا على عنصر أساسي مشترك هو **نقل المعلومات** الذي سنعتمد عليه أساسا في تعريفنا لمصطلح **الاتصال**)[1].

ومن بين التعريفات التي تصب في هذا المعنى التعريف التالي:

الاتصال هو العملية التي من خلالها ينقل الفرد أم الجماعة **المرسل، المرسلون** بعض الرسائل من أجل التأثير على سلوك أفراد أو جماعات أخرى **المتلقي، المتلقون** وتغييره حسب رغبة محددة [2].

وهذا هو المعنى العام الذي تمحورت حوله مفاهيم الاتصال الكلاسيكية.

أما المفاهيم الحديثة للاتصال فتلخصها الانتقادات الموجهة **لنظرية الدلو** والتي وجهها **بارلو** نفسه لنظريته المذكورة فيما بعد وكل المفاهيم المرتبطة بها. فقد انقلب **بارلو** على التصورات السابقة للاتصال معتبرا أن الموقف ألاتصالي يبين أن المعاني لا وجود لها في الرموز المستخدمة وإنما توجد المعاني في أذهان الناس الذين ينتجون هذه الرموز والذين يتلقونها، وكذلك فإن الاتصال ينبغي أن

---

[1] - فضيل دليو: **اتصال المؤسسة**- دار الفجر للنشر والتوزيع، النزهة الجديدة، القاهرة، مصر، 2003، ص21.

[2] - محمد الجوهري وآخرون: **علم الاجتماع ودراسة الإعلام والاتصال**- دار المعرفة الجامعية، مصر، 1992، ص18.

ينظر إليه على أنه اختيار رموز من المحتمل أن تستثير المعاني أو تستخرجها لدى المتلقي[1]. وتلتقي معظم تعريفات الاتصال عند عناصر مشتركة أهمها:

الاتصال هو عملية تفاعل اجتماعي **يستخدمه** الناس لبناء معان تشكل في عقولهم صورا للعالم ويتبادلون هذه الصور الذهنية عن طريق الرموز. وهو المشاركة في فكرة أم اتجاه أم موقف، ولا يشترط أن تكون المشاركة بالاتفاق والتطابق، بل المشاركة هنا تعني الأفكار والمشاعر والاتجاهات والمواقف في حال الاتفاق كما في حال الاختلاف[2].

الاتصال هو أساس العلاقات الإنسانية وليس شيئا قائما بذاته، من خلاله يمكن أن تتطور هذه العلاقات، وهو يشتمل الرموز (صور وكلمات) والمعلومات والأفكار والتجارب[3]. وهذا ما يكسبه صفة الأنثروبولوجيا التي يوصف بها")[4].

(يقول الباحث **كارل هوفلاند** أن الاتصال هو العملية التي ينقل بمقتضاها الفرد **القائم بالاتصال** منبهات **عادة رموز لغوية** لكي يعدل سلوك الأفراد الآخرين **مستقبلي الرسالة**. في هذه الحالة ينص التعريف على أن القائم بالاتصال ينقل عمدا **أي بشكل هادف** منبهات لأحداث تأثير معين.

ويقول الباحث **تشارلس موريس**: إن اصطلاح الاتصال حينما نستخدمه بشكل واسع النطاق، فإنه يتناول أي ظرف يتوافر فيه مشاركة عدد من الأفراد في أمر معين، ولكن **موريس** يقصر الاتصال على استخدام الرموز لكي تحقق شيوعا ومشاركة لها مغزى، أي أن تحقيق تآلف حول قضية معينة سواء بواسطة الرموز أو وسيلة أخرى يسميها **موريس** شيوعا قياسا على ذلك فإنه حينما يغضب شخصا ما، فقد ينتقل الغضب إلى شخص آخر. هذا الظرف ينطوي على إحساس مشاع أي مشاركة، من ناحية أخرى قد يبدي شخص دلائل توحي بالغضب بدون أن يغضب فعلا. هذه الظواهر قد تجعل شخصا آخر يبدي بدوره مؤشرات تدل على الغضب. ما يحدث في هذه الحالة هو **اتصال**)[5].

ويقول الباحث **جورج لندبرج** أن كلمة **الاتصال** تستخدم لتشير إلى **التفاعل** بواسطة العلاقات والرموز، والرموز قد تكون حركات أو صور أو لغة أو أي شيء آخر تعمل كمنبه للسلوك، كما

---

[1] – حمدي حسن: **الاتصال وبحوث التأثير في دراسات الاتصال الجماهيري**– مرجع سابق، ص37.

[2] – إبراهيم أبو عرقوب: **الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي**– دار المجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 1993، ص7.

[3] – فؤاد عبد المنعم البكري: **الاتصال الشخصي في عصر تكنولوجيا الاتصال**–عالم الكتب، مصر، 2002، ص7.

[4] – فضيل دليو وآخرون : **الاتصال في المؤسسة**– مؤسسة الزهراء للفنون المطبعية، قسنطينة، الجزائر، 2003، ص ص8-9.

[5] - Charles ,Morris, Signs , **Language and Behavior** (NEW YORK) ,Prentice – HALL, 1946 ; p118.

أن السلوك الناتج عن هذا التفاعل قد لا يحدث نتيجة لمجرد التعرض للرمز نسفه، بل لا بد من تهيئة الفرد الذي سيقوم بالاستجابة ليتقبل المنبه بشكل معين. وفقا لهذا الرأي يصبح الاتصال جانبا فرعيا للتفاعل أو يدرج تحت التفاعل. أي أن الاتصال هو نوع من التفاعل يحدث بواسطة الرموز.

والاتصال وفقا للباحث **لندبرج** يختلف عن **التوصيل**، كما يختلف عن **التفاعل** سواء على المستوى اللغوي أو أي مستوى آخر، فالاتصال الاجتماعي يقوم على عملية تفاعل مؤقتة بالرموز بين فرد مع شخص آخر في مواجهة ظرف معين في إطار عملية الاتصال. والاتصال الحقيقي وفقا للباحث **لندبرج** هو نوع من التفاعل الذي يتم بواسطة الرموز والعلامات. يؤدي هذا التفاعل إلى تخفيف توتر أو عدم يقين الأفراد وإلى زيادة حجم الفهم. ويعتبر **لندبرج** التفاعل الذي يؤدي إلى زيادة التوتر اتصال. ولكن تختلف درجته وهو ينطوي على درجة مختلفة من التعريف الرمزي[1].

سنجد في هذين التعريفين اعترافا بالعمليات أو مجالات السلوك التي لها علاقة قريبة بالاتصال-وهي المشاركة عن طريق الشيوع عند **موريس** والتفاعل باستخدام العلاقات عند **لندبرج**.

وأحيانا يتم تعريف الاتصال في حالات لا يحدث فيها نقل متعمد للمنبهات بهدف تحقيق استجابة. فقد كتب **إدوارد سابير** عن الاتصال **المحدد** والاتصال **الضمني** قال أن الاتصال **المحدد** هو اتصال بالمعنى التقليدي، أما الاتصال **الضمني** فهو التفسير البديهي للرموز اللاشعورية نسبيا والاستيعاب اللاشعوري للأفكار والسلوك في ثقافة الفرد[2].

ويقول بعض علماء الاتصال أن مفهوم الاتصال يتضمن كل العمليات التي يؤثر بمقتضاها الناس على بعضهم البعض، بل إن هناك من يدعي أن الاتصال يشير أيضا إلى التفاعلات غير البشرية، فيقول الباحث **ستيغنر** مثلا في تعريفه الإجرائي للاتصال: "الاتصال هو استجابة الكائن الحي على منبه معين بشكل متميز، فالاتصال يحدث حينما تطرأ تغيرات معينة على ظروف محيطة – **منبه** – تفرض نفسها على الكائن الحي وتجعله يقدم على عمل معين حيال هذه التغيرات يقدم على – **استجابة** – متميزة، وإذا تجاهل الكائن الحي هذا المنبه، لا يصبح هناك اتصال، فالعامل الأساسي هو وجود ردة فعل من نوع ما يتسم بالاختلاف، والرسالة التي لا تحظى باستجابة لا تعتبر اتصال، هذا التعريف واسع وإجرائي وسلوكي.)[3]

---

[1] - George Lund berg: **fondation de la sociologie** , Mac Milan, (NEW YORK) 1939.

[2] - Edward Sapir: **Communication, Encyclopedia of the Social Sciences**, (N,Y, , Mac Milan, 1933.p79.

[3] - جيهان أحمد رشتي: **الأسس العلمية لنظريات الإعلام**- دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1978، ص ص50-52.

(**الاتصال** حسب **ريكارد أندي** "عملية يقصد مصدر نوعي بواسطتها إثارة استجابة نوعية لدى مستقبل نوعي"[1]. أي أنه عملية مقصودة، هادفة وذات عناصر محددة.

عرف **بيرلسون وستاينر** الاتصال بأنه "عملية نقل المعلومات والرغبات والمشاعر والمعرفة والتجارب، إما شفويا أو باستعمال الرموز والكلمات والصور والإحصائيات بقصد الإقناع أو التأثير على السلوك"[2].

أما **روجرز وكنكايد** فقد وصفا الاتصال بأنه "العملية التي يخلق فيها الأفراد معلومات متبادلة ليصلوا إلى فهم مشترك"[3].

وأما الباحث **كارل هوفلاند** فيرى بأن الاتصال هو العملية التي ينقل عمدا بمقتضاها المرسل منبهات لكي يعدل سلوك المستقبلين، وعلى عكس ذلك يرى **إيدوارد سابير** بان الاتصال يشمل الحالات التي لا يكون فيها نقلا متعمدا للمنبهات، وهناك من يرى مثل **ستيفتر** بأن الاتصال يشير أيضا إلى التفاعلات غير البشرية حينما يسمي في تعريفه المرسل أو المستجيب "أي كائن حي". وهناك من يوسع دائرة الاتصال إلى الكائنات غير الحية **نوبرت وينر** الذي يعرف الاتصال بشكل أوسع جعله يتضمن التفاعل بين الآلات أيضا، فيقول بأن الاتصال بمعناه الواسع يتضمن كل الإجراءات التي يمكن بمقتضاها أن يؤثر عقل بشري على آخر، أو جهاز على جهاز آخر "يمكن لآلة أوتوماتيكية أن ترصد تحركات طائرة وتحسب مواقعها المحتملة، أن تطلق صاروخا موجه لتفجيرها"[4].

ويبقى في الأخير أن نوضح بعدا اصطلاحيا بالإشارة إلى أن المشكل الذي كانت تثيره المصطلحات المشابهة لمفهوم الاتصال، ومنها الإعلام والمواصلات والتواصل والبلاغ ... لنؤكد بأنه قد حل تلقائيا مع مرور الزمن، حيث زال تدريجيا التشويش الذي كانت تحدثه الترجمات الأكاديمية والصحفية للكلمة الإنجليزية COMMUNICATION في بداية الأمر، ليستقر الاستعمال الأكاديمي الآن لمصطلح الاتصال الذي يعبر عن الإيصال أو التواصل الأشمل من كلمة الإعلام، التي أصبحت من جهتها تعكس أكثر معنى الأخبار أو المعلومات كمادة أولية.

ومن جهة أخرى، فإذا كان **الإعلام** يعني أساسا المعطيات والمحتويات، **فالاتصال** يستلزم الحوار، وإذا كان مفهوم الإعلام يعبر عن شيء ثابت (حالة، وضعية) فالاتصال عبارة في الغالب عن عملية. إنه

---

[1] - حجازي مصطفي: **الاتصال الفعال في العلاقات الإنسانية**- دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1982، ص18.

[2] - الجردي نبيل عارف: **مقدمة في علم الاتصال**- مكتبة الإمارات، العين ، الإمارات، 1985.ص 21-22.

[3] - برنت روبن: **الاتصال والسلوك الإنساني**- معهد الإدارة العامة، السعودية، 1991، ص91.

[4] - جيهان أحمد رشتي: **الأسس العلمية لنظريات الإعلام**- مرجع سابق، ص ص53-50.

يفعّل الإعلام بجعله أمرا واقعا. ومن ثمة فقد يوجد إعلام دون علاقة اتصالية ولكن لا يمكن أن يكون هناك اتصال دون إعلام)[1].

تعريف الاتصال الدعوي:

إن المتتبع للتراث المعرفي في هذا المجال يجده يستهدف المجالات المختلفة لاتصال الدعاة وأبعاده. ونقصد به تلك العملية المنطوقة والمكتوبة التي تهدف إلى تدفق المعلومات اللازمة لاستمرار المعرفة الإسلامية عن طريق تجميعها ونقلها في مختلف الاتجاهات بين المسلمين خاصة ومع غيرهم عامة، وتعمل على تنمية الوعي بالإسلام والالتزام بقيمه وتقوية العلاقات الاجتماعية بين المؤمنين.

أهمية الاتصال الدعوي:

نحن نعلم أن الاتصال عملية أساسية في الحياة الاجتماعية. لقد عمل عبر التاريخ على جمع شمل الناس بعضهم إلى بعض لكي يشعروا باتحادهم، كما عمل أيضا وما زال يعمل في العصور الحديثة معتمدا بصفة جزئية كما هي حاله دائما على الانقسامات الشكلية وغير الحقيقية في الفكر الإنساني. ولقد عمل أيضا على تعمية الناس وعلى توجيههم في الوقت نفسه وعلى زيادة قابليتهم للإيحاء والتقليد ولجعلهم يخضعون للمهيمنين على الاتصال نفسه.

ولضمان الفهم السليم للرسالة الدعوية، ولتحسين أساليب وطرق الأداء لا بد من التعرف على وجهة نظر المدعوين وآرائهم بالنسبة لما يطرح عليهم ومقترحاتهم بالنسبة للأساليب الحالية المستخدمة.

إلا أن فهم المدعوين لمضامين الرسالة الدعوية وفهم الدعاة لرغباتهم ومطالبهم ومقترحاتهم يتوقف على مدى كفاية الطريقة التي تنقل بها، أي يتوقف على الأساليب التي تستخدم في الاتصال بالمدعوين. كيف تعد هذه الأساليب بحيث تضمن نقل هذه المعلومات بالصورة التي تضمن قبولها من جانب المدعوين والتي تتيح الفرصة للداعية لتفهم مطالبهم ومقترحاتهم.

ويشير مفهوم الاتصال إلى درجة معينة من التفاعل الاجتماعي بين الأفراد والجماعات، يستهدف تحديد مجرى السلوك أو الفعل، والفعل هنا هو استجابة قد تتخذ صورة الاتجاه، أو قبول فكرة، أو إحجام عن القيام بسلوك معين.

---

[1] - فضيل دليو: **اتصال المؤسسة**- مرجع سابق، ص ص22-23.

إن **التفاعل** بين الدعاة والمدعوين يعتمد على الاتصال، طالما أنه أداة نقل المعلومات، والوقائع، والأفكار، والمشاعر من شخص لآخر. وهذا بدوره يجعل من الممكن تحقيق الأهداف الدعوية.

مكونات العملية الاتصالية:

(مهما كانت الطريقة المتبعة في نقل الرسالة من المصدر إلى المستلم فإن الرسالة ذاتها يجب أن تحقق غرضا أساسيا واحدا وهو نقل المعنى الذي يريده المرسل إلى المستلم بوضوح تام حتى يتمكن المستلم من فهم الرسالة والاستجابة لها. وإذا تفحصنا عملية الاتصال نجد أنها مكونة من ثمانية عناصر رئيسية يتوجب وجودها وإلا تأثرت عملية الاتصال وفشلت في تحقيق هدفها. ويبين الشكل التالي هذه العناصر وعلاقتها ببعضها البعض.

مكونات العملية الاتصالية الدعوية

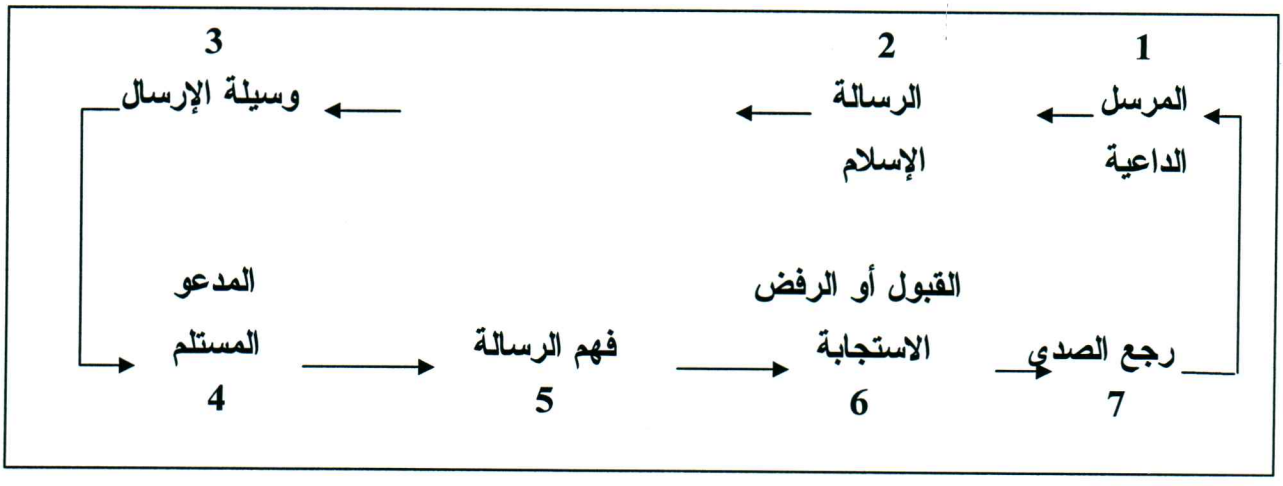

يقوم **الداعية** بتجميع القيم والأحكام والمعاني (من خلال النصوص الشرعية) التي يريد بيانها ويكون منها **الرسالة** إلا أنها لا تزال نصوصا شرعية آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال العلماء. وعند وضوح الرسالة يقوم **الداعية** باختيار **الرموز أو الكلمات التي تعبر عن المعنى** تعبيرا صحيحا، ومن ثم يختار **الوسيلة** المناسبة لحمل الرسالة المعنية إلى **المدعو** الذي يعمل بدوره على **تحليل الرموز أو الكلمات**. وعند توصل **المدعو** إلى التحليل الصحيح فإنه يتوصل إلى **فهم هدف الرسالة ويستجيب لها إيجابا أو سلبا**. ونتيجة **لاستجابته** وللنشاطات التي قام بها فإن **الداعية** يتعرف فيما إذا كان **المدعو** قد فهم الرسالة أو أساء فهمها.

ملاحظة

قد تحدث أثناء عملية الاتصال أحداث تشوش على المرسل أو المستقبل، وهي معوقات الاتصال.

وظائف الاتصال الدعوي:

إن وظيفة الاتصال الدعوي لا تقتصر طبعا على مجرد تبليغ الناس الإسلام أو التعريف به، بل تتعداها إلى **جعل الإسلام مصدرا لقيم المجتمع**. فالاتصال الدعوي يهدف أساسا إلى إعطاء الإسلام **شرعية مجتمعية** وإدماجه في حياة الفرد والمجتمع من خلال تدعيم البعد العقدي بالبعد الإنساني، والاستجابة لحاجيات الأفراد والجماعات، وتوفير السعادة الإنسانية والاستقرار النفسي والاجتماعي، بالإضافة إلى ذلك يقوم الدعاة الذين يؤمنون بالاتصال كعملية ناجحة، بوضع نسق منسجم من الإشارات والدلائل الرمزية (السلوكية والقولية ...الخ، التي تعطي للدعوة معنى خاصا من خلال القدوة التي عادة ما تكون معبرة عن طبيعتها وأهدافها ومتماشية مع القيم الإسلامية.

نستطيع أن ندرس وظائف الاتصال من وجهة نظر **المرسل الداعية** أو من وجهة نظر **المتلقي المدعو**، كما نستطيع أن نحدد وظائف الاتصال على أساس الفرد أو على أساس المجتمع:

من وجهة نظر الفرد القائم بالاتصال، أي المرسل الداعية، نجد أن وظائفه في أغلب الأحوال هي:

الإعلام وإقامة الحجة.

التعليم والتربية والتوجيه.

الإقناع وتكوين الاتجاه أو تغييره.

من وجهة نظر الفرد المتلقي، أي الطرف الآخر في عملية الاتصال، فوظائفه من المشاركة في عملية الاتصال هي:

فهم ما يطرحه الدعاة.

تعلم قضايا وأحكام إسلامية جديدة.

الحصول على معلومات جديدة تساعده على اتخاذ القرارات والتصرف بشكل مقبول إسلاميا.

ما هي الوظائف التي يؤديها الاتصال الدعوي للمجتمع حاليا أو كان يؤديها في الماضي؟ سنجد أن هذه الوظائف لا تخرج عن:

توفير معلومات عن الإسلام وقيمه والمساعدة على تنشئة الجيل الجديد من الأطفال أو الوافدين الجدد على المجتمع.

مساعدة النظام الاجتماعي على الاستقرار والاستمرار.

وذلك بتحقيق الإجماع أو الاتفاق بين أفراد الشعب الواحد أو الجماعة الواحدة، عن طريق الإقناع، بمعنى الاعتماد أساسا على الإقناع في توجيه الجماهير وضمان قيامهم بالأدوار المطلوبة منهم إسلاميا.

أهداف الاتصال الدعوي

إن للاتصال الدعوي أهدافاً سامية، وغايات نبيلة، ومن أهم هذه الأهداف:

الهدف الأول: تعريف العباد بخالقهم، وتعبيدهم إليه.

قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ * ما أُرِيدُ مِنْهُم مّن رّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ** ﴾ الآية. [الذاريات: 56]

والإنسان بفطرته فقير إلى غيره، وهو أفقر إلى خالقه منه إلى سواه، (**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه**).

فإذا فقد الصلة بالله، وجهل خالقه وحقوقه، حصل في النفس البشرية ضياع، وأصبح فيها فراغ، وأُحدث بها قلق لا تستقر معه النفس. ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَىَ..** ﴾الآية. [طه: 124]

فإذا عمّ هذا الأمر، اضطربت البشرية اضطراباً شديداً، فظلم الناس بعضهم بعضاً، وطحنت الأمم بعضها بعضا، وعاشت في فوضى لا تبقي ولا تذر، فلا أمان ولا سلام، ولا معيشة طيبة ولا اطمئنان وأما إذا عرف العبد خالقه، وعلم ما يريده منه، استقرت النفس، واطمأن القلب، وحصلت الاستقامة في تصرف الأفراد.

فإذا عمّ هذا الأمر، استقرت البشرية، واطمأنت الخليقة، فتعاون الناس على البر والتقوى، بدل التعاون على الإثم والعدوان، فانتشر الأمان، وعم السلام، وعاش الناس في بلهنية من العيش ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ..** ﴾ الآية. [النحل: 92]

هذا هو الهدف الأول والسامي للاتصال الدعوي.

ومعرفة الخالق لا تعني مجرد الإيمان بوجوده، بل لابد من العلم به و بحقوقه، والالتزام بما يريده في كتابه، وعلى لسان رسوله، في طاعته فيما يأمر، والانتهاء عما ينهى عنه.

وأن يؤمن بأن ثمة حساباً عن كل صغيرة وكبيرة، وكل قول وعمل، ثم الجزاء الأوفى، بما أعد الله للطائعين من كرامة وجنان، وما أعد للعاصين من خزي ونيران.

قال تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ **يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلّ لَهُمُ الطّيّبَاتِ وَيُحَرّمُ عَلَيْهِمُ الخبائث..**﴾ الآية. [الأعراف:157]

الهدف الثاني: إحقاق الحق، ودحض الباطل.

إن أساس الإسلام، ولبه، ومحوره: هو إحقاق الحق، أيًا كان، ومع من كان.. وإزهاق الباطل، أينما كان، ومع من كان.. دون النظر إلى جوانب عاطفية، أو مصالح شخصية، أو قرابات نسبية، مهما كانت درجة هذه القرابة.

بل نصر الحق، ودحض الباطل، هو الأصل في الدعوة إلى الله، وهو المطلب الأساس.

قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ جاءت رُسُلُ رَبّنَا بِالْحَقّ...**﴾.الآية [الأعراف:43]

وقال تعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَقّ مِن رّبّكُمْ فَمَن شاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شاء فَلْيَكْفُرْ...**﴾. الآية [الكهف: 29]

والحق في الدعوة إلى الله، ليس محصوراً في صورة دون صورة، ولا موجهاً لطبقة دون طبقة، ولا يسير في منحنى دون آخر، بل الحق يشمل كل صور الحياة، وأحداث الواقع، وطبقات الناس، وجميع المنحنيات، فلا يُستثنى أحد من قول الحق، أو قبول الحق.

كما يشمل جميع صور الاعتقاد، وأنواع العبادة، والأقوال والأفعال، وأنواع المعاملات والعادات.

قال تعالى: ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقّ...** ﴾ [الرعد: 14] في كل صور الحياة.

ولذلك خاطب الله البشرية جميعاً بذلك فقال:

قُلْ يَأَيّهَا النّاسُ قَدْ جاءكم الْحَقّ مِن رّبّكُمْ فَمَنُ اهْتَدَىَ فَإِنّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ... ﴾ الآية. [يونس:108]

وأوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول الحق في كل مقام، دون خوف من أحد، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لا يمنعن أحدَكم مخافةُ الناس -وفي رواية هيبةُ الناس- أو بشر، أن يتكلم بالحق، إذا علمه أو شهده أو سمعه).[1]

وجاءت النصوص مشددة على قول الحق في مقام الحكم بين الناس.

وأنزلنا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ... ﴾ الآية. [المائدة: 48]

ولما أراد أسامة بن زيد أن يشفع في المخزومية التي سرقت، غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً، وقال له: ((أتشفع في حد من حدود الله))، ثم قال عليه الصلاة والسلام: ((إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[2].

ولا يخفى على عاقل ما في نصر الحق، ودحض الباطل من خير عميم للبلاد، ومصالح عظيمة للعباد، ولذلك سارعت تلك الأمم على اختلاف ألوانها.. وتنوع أصولها.. إلى الدخول في الإسلام. تاركة الباطل الذي عشعش في عقائدهم، وتحكم في عباداتهم، وسيطر على عاداتهم، مجافية سلاطين السوء، وحكام الجور، الذين تحكموا بهم على مدى قرون، هاجرة دجاجلة من كهنة ورجال دين، أفسدوا عليهم دينهم، فظهر الحق مستعلياً على باطل الشرك، كعبادة غير الله، من سؤال وسجود، ومبطلاً بدع التعبد السخيفة، كالرياضات المجوسية، من وقوف تحت الشمس أياماً تعبداً... والامتناع عن النكاح والطعام، وغير ذلك من العبادات الباطلة، التي أبطلتها دعوة الحق.

وما حياً عادات قبيحة، لا يقرها شرع، ولا يقبلها عقل، كمنع الطلاق.. ودفن الزوجة حية مع زوجها إذا مات قبلها.. وما قصة إلقاء الفتاة في النيل كل سنة بمجهولة[3]، وما شابه هذه العادات الباطلة التي سخطها الإسلام، واستبدلها بالحق الناصع، والصراط المستقيم.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾. [الأنبياء: 18]

وهكذا عاش المسلمون في الحق وللحق وبالحق.

---

[1] - حديث صحيح، أخرجه أحمد (3/46-47)، وابن ماجه (4007)، والترمذي (2191) مطولاً، وغيرهم، وذكره شيخنا الألباني -رحمه الله تعالى- في الصحيحة رقم (168)، وله ألفاظ متقاربة.

[2] - رواه البخاري (3475)، ومسلم (1688).

[3] - انظر قصة نيل مصر في البداية والنهاية لابن كثير (7/100)

الثالث: نشر العدل، ورفع الظلم.

الظلم ظلمان: ظلم العبد لنفسه، وظلمه لغيره.

فأما ظلم العبد لنفسه، فهو الكفر بخالقه، وصرفه عبادته لغير ربه، ووصفُ اللهِ تعالى بما لا يليق به، وإعراضه عن دعوة الله، وعصيانه وغير ذلك من صور الظلم كثير.

قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبُنَيّ لاَ تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾. [لقمان: 13]

وقال سبحانه: ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظّالِمُونَ** ﴾. [البقرة: 254]

ولذلك كان من أعظم أهداف الاتصال الدعوي إزالة هذا الظلم القبيح، والاعتداء على حدود الله، في ذاته، وربوبيته، وألوهيته، وصفاته، فيصبح الناس عادلين في ربهم، طيبين في نفوسهم..

والظلم الآخر: ظلم العبد لغيره، وصور هذا الظلم كثيرةٌ لا تُحصى، ومختلفة لا تنضبط.. من إزهاق الأرواح، وسفك الدماء، وانتهاك الأعراض، وسلب الأموال، ومنع الحقوق، واختلاس الأمن، وترويع العباد، وإهلاك الحرث، وإفساد النسل.

حتى عد شرع الله عز وجل أن أخذ الشيء اليسير من الإنسان، كالسواك ظلمًا يستحق صاحبه العذاب الأليم.

قال صلى الله عليه وسلم: (من حلف على يمين كاذبة يقتطع بها مال رجل مسلم -أو قال: أخيه- لقي الله وهو عليه غضبان، قالوا: يا رسول الله ولو شيئا يسيرًا، قال: ولو عودًا من أراك)[1]

لأجل ذلك جاءت النصوص الكثيرة، والأحكام الصارمة في تحريم الظلم.

قال تعالى: ﴿ **وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً** ﴾. [طه: 111]

وقال تعالى: ﴿ **أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ** ﴾. [هود: 18]

وقال صلى الله عليه وسلم: ((الظلم ظلمات يوم القيامة)).[2]

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى:

((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا...))[3]

---

[1] - رواه البخاري (6659، 7445)، ومسلم (138)، والأراك هو شجر يؤخذ منه السواك.

[2] - رواه البخاري (2447)، ومسلم (2579).

[3] - رواه مسلم (2577)

ولم يكتف الله سبحانه بالأمر بالعدل بل أمر بالإحسان، الذي هو أعلى مرتبة وأسمى منزلة من العدل، فإن العدل أن تعطي المرء حقه، والإحسان أن تزيده على حقه إحساناً منك وتفضلاً.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...**﴾ الآية. [النحل: 90]

وأمر الله تعالى بالعدل بين الناس جميعاً بغض النظر عن انتماءاتهم وأصولهم وألوانهم.

قال تعالى حاكياً عن نبيه: ﴿ **وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ** ﴾ الآية. [الشورى: 15]

وأمر الله بالعدل وقول الحق، دون النظر إلى قرابة، أو غنى، أو ما شابه ذلك، قال سبحانه:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شهداء للّهِ وَلَوْ عَلَىَ أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية. [النساء: 135]

وأمر الله بالعدل، ولو مع الأعداء.

قال سبحانه: ﴿ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىَ أَلاَّ تَعْدِلُواْ...**﴾ الآية. [المائدة: 8]

فأي دين أعظم من هذا؟! وأيةُ وصايا أسمى من هذه؟! إذ جعل العدل مع العدو عملاً صالحاً يقربه إلى الله.

ولا تسأل بعد حلول العدل في الناس عما يكون في نفوسهم من الطمأنينة في القلوب، والسكينة في النفوس، والإحساس بالمتعة العظيمة.

فضلاً عما يكون بينهم من التآلف والتسامح، فإن العدل من أوثق روابط المجتمعات، وأقوى لبنات البناء فيما بين الناس، وفيما بينهم وبين حكامهم.

ولا أدل على هذا؛ مما حصل في الفتوحات الإسلامية، من تدافع الشعوب نحو الإسلام، لما رأت من عدل الإسلام ما رأت.. فدفعها هذا إلى الدخول في الإسلام أفواجاً، إيماناً بالعقيدة الصحيحة، ورغبة بما في الإسلام من العدل، وتخلصاً مما كانوا فيه من الظلم.. فقِصَصُ حكام المسلمين وقضاتهم في العدل ومع غير المسلمين، أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصى، وقد ذكرها الكثير من علماء المسلمين في مواضع كثيرة [1].

والمقام ليس مقام تفصيل، وذكر حكايات.

---

[1] راجع حلية الأولياء، لأبي نعيم (140/4)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (487/42)، وأخبار القضاة لوكيع ابن الجراح (194/2-195).

الهدف الرابع: نشر الصلاح والوقاية من الفساد.

مما لا ريب فيه: أن من أعظم آثار الدعوة إلى الله نشر الصلاح بين الناس، و كبح جماح الفساد في الأرض.

لذلك حث الإسلام على الصلاح والإصلاح عامة، ونهى عن الفساد والإفساد عامة.

قال تعالى: ﴿ **يَأَيّهَا الرّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطّيّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِحاً إِنّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾. [المؤمنون: 51]

وقال سبحانه: ﴿ **وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنّ رَحْمَةَ اللّهِ قَرِيبٌ مّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ الآية. [الأعراف: 56]

وطلباً للإصلاح، ودفعاً للإفساد، قرر الإسلام عقوبة صارمة لمن يبغي الفساد في الأرض، قال سبحانه: ﴿ **إِنّمَا جزاء الّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتّلُواْ أَوْ يُصَلّبُواْ أَوْ تُقَطّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدّنْيَا وَلَهُمْ فِي الاَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾. [المائدة: 33]

ذلك لأن الفساد في الأرض، يجلب الظلم والقهر، ويدفع إلى الاغتصاب، ويضيع الحقوق، ويشيع الفوضى، فُيفقدُ الأمنُ، وتضطربُ المعايشُ. ويهلك الحرث والنسل، فلا يستقر للناس قرار، ولا يهدأ لهم حال، لذلك وضع هذه العقوبة الصارمة للمفسدين.

والإعراض عن الدعوة، يجلب الفساد في الأرض كلها، وانتقام الله عز وجل، بشتى صور الانتقام.. من تسلط الظلمة، وانتشار الأوبئة، وقلة الخيرات، ومحق البركات، وارتفاع الأسعار، ونكد العيش، وتتابع المصائب.

قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَىَ** ﴾. الآية [طه:124]

وقال تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الّذِي عَمِلُواْ لَعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾. [الروم: 41]

قال ابن كثير: ((الفساد: يعني انقطاع المطر عن البر.. ثم قال: أي: بان النقص في الزروع والثمار، بسبب المعاصي، قال أبو العالية: من عصى الله في الأرض، فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة)) [1].

وتارة يكون انتقامُ الله مباشراً، بإنزال العذاب بالمفسدين في الدنيا.

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مّطْمَئِنّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مّن كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾.[النحل: 112]

وتارة يكون انتقام الله بتسليط الظلمة، من فوق الناس، أو بالتفريق والفتن بينهم.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىَ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾. [الأنعام: 65]

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: "أما العذاب الذي من فوقكم فأئمة سوء". [2]

ولقد كان كل عذاب يترل على الأرض بأي صورة من الصور، إنما هو بأفعال الناس الفاسدة، وهكذا الأمر يكون إلى يوم القيامة.

قال تعالى -بعد أن ذكر ما نزل بتلك الأقوام من العذاب لإفسادهم-: ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾. [الأعراف: 103، النمل: 14]

ومن أعظم عقوبات الله تعالى للمفسدين، أنه يمدهم في طغيانهم، ولا يصلح أعمالهم.

قال تعالى: ﴿ إِنّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾. [يونس: 81]

فتفسد معيشتهم، ولا يهديهم إلى إصلاحها، كما حصل من أهل مأرب، وما كانوا عليه من عيشة رغيدة، وحياة سعيدة، وتقدم مدني، حتى استطاعوا وقتئذ أن يبنوا سداً عظيما، يحيي الله لهم به الأرض بعد موتها... فلما أعرضوا عن الدعوة الحق أفسدوا.. فضرب الله عليهم السد، وقطعهم في الأرض أمماً، بما كان منهم من فساد.

ولأهمية هذا الحدث، نسوق وقائعه من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رّزْقِ رَبّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ بَلْدَةٌ طَيّبَةٌ وَرَبٌ غَفُورٌ* فَأَعْرَضُواْ

---

[1] - تفسير ابن كثير (444/3، 445).

[2]. أخرجه ابن جرير (408/11) من طريقين عن ابن عباس رضي الله عنه.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّاتِهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ* ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجْزِيَ إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾.[1] [سبأ:15-17]

وكذلك لما عاين فرعون الحق حين الموت، ونطق بكلمة الإيمان، ردها الله عليه لما كان منه من الفساد من قبل.

قال سبحانه: ﴿ آلان وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾. [يونس:91]

وقد يكون من الله مكر باستدراجهم، ومدهم بالمال والقوة:﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ* وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم: 44، 45]، [الأعراف:183]

وقال سبحانه: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون:56]

ولو ذهبنا نتتبع أصناف الفساد، وأنواع العذاب الذي نزل على الأمم في القرآن والسنة لطال بنا المقام.

قال ابن القيم: ((فكل نقص وبلاء، وشر في الدنيا والآخرة، فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها))[2].

وإذا انقطع الفساد، انقطع الشرك، ودحض الباطل، ومحيت البدع والخرافات، وانقطعت شرور الناس من بعضهم البعض، من سفك الدماء، وانتهاك الأعراض، وذهاب العقول، وسلب الأموال، وانقطع الشر كله.. فحفظت العقول، وأمنت النفوس، وأحصنت الأعراض، وسلمت الأموال، وانتشر الصلاح والخير كله، وعاش الناس في أمان وسلام، وأخوة ووئام، وأمن بعضهم بعضاً.

وإذا قطع الفساد، أمن الناس عذاب الله، ووقوا انتقامه، فعاشوا في أمن من الله، وأمن من الناس.

---

[1]- معاني بعض مفردات الآيات، سبأ: قبيلة مشهورة باليمن كانت قد بنت سد عظيم.

آية: عبرة وعظة.

فأعرضوا: أي تركوا العلم بدين الله بعدما رزقهم وسهل لهم الحياة.

سيل العرم: اسم السد الذي بنوه لحفظ المياه.

بدلناهم: أي لما أعرضوا عاقبهم الله بتبديل النعم من بساتين، وثمار طيبة بثمار سيئة وهي الخمط والأثل و...

أكل خمط: ثمر مرٌّ حامض لا يستساغ.

الأثل: شجر ينبت ثمراً لا يؤكل.

السدر: شجر ينبت ثمراً كالتفاح ولكن حجمه كالعنب يسمى في بعض البلدان بالعبري والنبق.

[2]. (مدارج السالكين) (424/1).

موجباتها: الموجب: بفتح الجيم: الثمرة وبكسر السين: أي أن سبب الشرور الذنوب وأسبابها.

قال تعالى: ﴿... فَأَيّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقّ بِالأمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* الّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوَاْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مّهْتَدُونَ ﴾. [الأنعام: 8]

ووعد الله الصالحين بإبدال خوفهم أمنا.

قال تعالى: ﴿ وَلَيُبَدّلَنّهُمْ مّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً.. ﴾ الآية. [النور: 55]

وهكذا عاش الصالحون في ربوع الأمن قروناً حتى إذا ما أعرضوا عن الدعوة أعرض الله عنهم.. فكان ما كان.

الهدف الخامس: نشر الإخاء والسلام، والأمن بين الأنام.

من أعظم أهداف الدعوة إلى الله انتشار الإخاء والمحبة، والرحمة والتعارف، والتعاون والأمان، والسلام بين العباد.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لّلْعَالَمِينَ ﴾. [الأنبياء: 107]

وقال صلى الله عليه وسلم: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))[1]

وفي مقام التعارف بين البشرية:

قال تعالى:

﴿يَأَيّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىَ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقبائل لِتَعَارَفُواْ...﴾ الآية [الحجرات: 13]

وفي مقام السلام العزيز، قال تعالى:﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ ﴾. [الأنفال: 61]

وإن من أكبر الشواهد على صدق هذا، ما حققته الدعوة الإسلامية حين انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها، من تعارف هذه الشعوب، مع تباعد أقطارها، وانفتاح بعضها على بعض، مع تنافر طباعها.. وتآلف بعضها مع بعض مع اختلاف ثقافاتها.. ثم اتحادها فيما بينها مع تفاوت أجناسها وألوانها.

---

[1] - أخرجه الترمذي (1924)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

فانقلب ما كان بينهم من تطاحن ودماء، إلى محبة وإخاء، وأصبحوا عباد الله إخوانا، يُعلّم بعضهم بعضا، ويدافع بعضهم عن بعض بعد أن كانوا أعداء يقتل بعضهم بعضا.

قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنّ اللّهَ أَلّفَ بَيْنَهُمْ﴾. [الأنفال: 63]

فهذا الإمام أبو حنيفة النعمان رحمه الله إمام الفقه، والناس في مشارق الأرض ومغاربها عالة عليه في ذلك، وهو ليس بعربي، يتبعه العرب والأعاجم على اختلاف أصولهم.

وهذا الإمام البخاري من بخارى، وهي من أبعد البلاد عن العرب، أصبح إمام الثقلين في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، يأخذ منه العرب قبل العجم، ولا غنى للأمة البتة عن كتبه.

وهذا طارق بن زياد البربري، كان قائداً للعرب ولقومه.

وغير هؤلاء ألوف مؤلفة أصبحوا علماء، وقادة، وأمراء، وهم من بلاد شتى، ومن أصول مختلفة.

وأما تلك الشعوب التي تعد بألوف الألوف.. المتنافرة في كل شيء، في أصلها، ولغتها وثقافتها، ودينها..أصبحت –بعد أن انتشرت الدعوة فيها- أمة واحدة، ذات ثقافة واحدة، تكاد تتحدث بلسان واحد، قبل هذا التمزق المتأخر.

مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِنّ هَـذِهِ أُمّتُكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبّكُمْ فَاتّقُونِ ﴾. [المؤمنون: 52]

الهدف السادس: سعادة العباد في الدارين:

إن اهتداء الخلق إلى طريق الحق، تجاه ربهم، وتجاه من يتعايشون معهم؛ من أهل وأقرباء، وأصحاب، وأصحاب جنب.. يعرف كل فرد بحقوقه وواجباته ومن عرف حقوقه وواجباته، وصدق في أدائها، أمن الناس وأمنوا منه، ونال حقه، ونالوا حقوقهم، وإذا حصل ذلك، عاش الناس جميعاً عيشة السعداء، فلا خوف يهددهم، ولا فساد ينغصهم.

وسعادة الإنسان في ثلاثة:

سعادته في قلبه ونفسه..

سعادته في حياته ومعيشته..

سعادته في مصيره وآخرته..

وإن من أهم أهداف الدعوة إلى الله تعالى، تحقيق هذه السعادات كلها، للخلق كلهم.

فمن عرف ربه، واستجاب لخالقه، وتوكل عليه، ورضي بقضائه وقدره، وأيقن أن كل شي بيده، وان كل شيء ماض عليه حكمة، حصل عنده يقين في القلب، وراحة في النفس، مهما كان عليه من حال، ومهما قدر له من قضاء، وكان كمن يعيش في قصور، ويرتع في جنان، فهذه سعادة القلب والنفس ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنّ الْقُلُوبُ﴾. [الرعد: 28]

وذِكْرُ الله هاهنا أعم من ذكره باللسان، لأن المقصود خشيته وطاعته، واتباع شرعه، والعمل بقرآنه.

قال تعالى: ﴿ وَهَـذَا ذِكْرٌ مّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:50]

وقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذّكْرَ لِتُبَيّنَ لِلنّاسِ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ ﴾. [النحل:44]

وقال تعالى: ﴿ اللّهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مّتَشَابِهاً مّثَانِيَ تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودُ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ ثُمّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىَ ذِكْرِ اللّهِ﴾. [الزمر:23]

فبهذا تتحقق سعادة القلب والنفس.

ومن استجاب لدعوة الله، عرف الحلال والحرام، ووقف عند حدود الله، فأدى الأمانة، واستقام في بيعه وشرائه، ووفى بعقوده ووعوده، ولم يعتد بيد، ولا في مال، ولا عرض، فأعطى ما عليه، وأخذ ما له، وتخلق بأخلاق الإسلام العظيمة.

فهذه سعادة الحياة والمعيشة: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَن مّثَلُهُ فِي الظّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مّنْهَا..﴾ الآية. [الأنعام: 122]

ومن استجاب لدعوة الله نال مرضاته، ونجا من ناره، وفاز بجنته، فهذه هي السعادة الحقيقية، والسعادة الأبدية.

﴿يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾ الآية. [الأنفال: 24]

قال الإمام البخاري: (استجيبوا): أجيبوا، (لما يحييكم): لما يصلحكم[1]. أي يصلح أمركم في الدنيا والآخرة.

فبهذا يتبين: أن من أعظم آثار الاستجابة لدعوة الله، أن يحيي الله المستجيبين حياة طيبة في الدارين.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. [النحل: 97]

---

[1] - فتح الباري (158/8)، عند ترجمة الحديث (4647)

ولقد تحقق هذا ظاهراً في كثير من فترات التاريخ الإسلامي، حين صدق المسلمون العمل بهذا الدين، فغمرت السعادة قلوب المؤمنين، وعم الرخاء في حياتهم ومعيشتهم، وساد الأمن والعدل في ديارهم، وسيلقون ما يوعدون عند ربهم.

وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ مِنْهُم مّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الفتح: 29]

خصائص الاتصال الدعوي الفعال:

إن نجاح القائم بالاتصال **الداعية** في الواقع يتحقق عندما يغير العلاقات بينه وبين الظروف المحيطة به حيث يقلل، بقدر الإمكان، من احتمال أن يصبح هدفا للتأثير الخارجي، ويزيد من قدرته في أن يصبح قوة مؤثرة.

أي أن يصبح الداعية عاملا أو قوة مؤثرة، يؤثر في الآخرين وفي الظروف المادية المحيطة به، وأن يصبح له صوت في الطريقة التي تدار بها الأمور، وباختصار **أن يكون الداعية فاعلا مؤثرا وبأهداف لإسلامية واضحة.**

وتتوقف درجة فعالية الاتصال على مدى توافر عوامل معينة لكل عنصر من العناصر الخمسة المكونة للعملية الاتصالية.. ومن أهم هذه العوامل ما يأتي:

تحديد الأهداف الأساسية والفرعية للاتصال. وهذا يقتضي من الداعية ضرورة الإجابة عن مجموعة من التساؤلات حتى يستطيع تحديد هدفه النهائي ومن ثم صياغة الرسالة وتحديد طريقة توصيلها للمستقبل وترتيب كيفية تنفيذ موضوع الاتصال وهذه الأسئلة هي:

ما الذي ينبغي تحقيقه من الرسالة؟

هل يهدف إلى تقديم معلومات؟

هل يرمي إلى تغيير اتجاهات شخص أو أشخاص آخرين... الخ

تحليل موضوع الرسالة وتوضيح كل جوانبها قبل البدء في الاتصال ... أي أن يبدأ بالتفكير... وذلك لضمان وضوح الفكرة وتحديد وقعها على المدعوين وتقدير مدى استجابتهم لها من أجل تحقق الهدف منها.

اختيار الوقت المناسب للاتصال .. فلا يتم الاتصال في حالات الغضب .. أو في الوقت الذي يبلغ منه الإجهاد والتعب أقصاه .. وكذلك مراعاة عدم مخالفة موضوع الاتصال للقيم والمبادئ والمعايير

الاجتماعية ... ومراعاة الظروف الطبيعية أيضا إلى جانب الظروف الاجتماعية والنفسية... فيتجنب الاتصال عند الضوضاء أو سوء الإضاءة أو الحرارة المرتفعة أو سوء التهوية.

تطوير مهارات الاتصال. ويقتضي ذلك توفير كافة العوامل التي تساعد على جذب الانتباه للرسالة.

تطوير مهارات استخدام وسائل الاتصال.

تطوير أساليب الحصول على المعلومات ونظم حفظها.

تقويم نتائج الاتصال.

متابعة الاتصال من أجل تحقيق هدف.

معوقات الاتصال:

ما يتعلق بالمحيط:

تباين اللغة فعدم وضوح دلالات الألفاظ التي تعبر عن موضوع معين، يؤدي إلى اختلاف تفسير مضمون الرسائل، مما يؤثر في الفهم والقبول، ويترتب عليه عدم إتيان السلوك المرغوب فيه.

ما يتعلق بالفواصل المكانية بين الأفراد حيث يكون الداعية من مكان والمدعوين من مكان آخر حيث اختلاف الأوضاع والأعراف والعادات الأمر الذي يؤدي إلى اختلاف المعاني التي يعطونها للأشياء.

تعدد عمليات الاتصال الدعوي، إذا كان الدعاة ينتمون إلى مناهج متعددة وجماعات متباينة حيث تلجأ كل فئة إلى استخدام اتصالاتها الخاصة بها مما يجعل عملية الاتصال صعبة وغير مفهومة.

عدم وجود إدارة للمعلومات أو القصور فيها يؤدي إلى عجز في جمع المعلومات وتنسيقها وتصنيفها وتوزيعها بحيث تسهم في رفع كفاءة عملية الاتصال.

وجود اتصال مضاد، الدعوات الهدامة، وكيد الأعداء والخصوم.

ما يتعلق بالقائم بالاتصال نفسه:

عدم الاهتمام بمصالح وحاجات المستقبل.

الانطواء: عدم مخالطة الآخرين أو تبادل المعلومات معهم.

احتكار المعلومات وعدم الإدلاء بها حتى يظهر بمظهر الخبير.

المبالغة في الاتصال وهو اتجاه معاكس لاحتكار المعلومات حيث يقوم الفرد بالإفراط في كتابة التقارير والإدلاء بالمعلومات وعقد الاجتماعات.....الخ

الاغترار بمعرفة كل شيء والتكلم عن كل شيء وأن ما يقوله أو يكتبه هو فقط الشيء المهم ولا يستمع إلى آراء وأفكار الآخرين.

الكبرياء.

الضغط على المدعوين: إن بعض الدعاة يمارسون ضغوطا على المدعوين دون وجه حق مما يسبب حاجزا في الاتصال بينهم.

ما يتعلق بالمستقبل:

قد يعمد بعض المستقبلين إلى التقليل من فاعلية الاتصال لاعتبارات نفسية أو اجتماعية، كالخوف عن المكانة الاجتماعية والسمعة.

الرسالة:

من أخطر مزالق العمل الإسلامي أن يغيب عن الدعاة، في خضم الصراع السياسي والتدافع الاجتماعي، أن طبيعة مشروعه قائمة أصلاً على أنه (**رسالة ربانية**) بالقصد الأول، وجب على حملتها الانضباط إلى شروط الأمانة في تبليغها، كما تقتضيه شروطها هي، لا كما تقتضيه أمزجتهم هم حسب أغراضهم وأهوائهم.

إن (**البلاغ**) ــ بمفهومه القرآني ــ هو أصل العمل الدعوي؛ ذلك أنه بصيغته هذه مشترك الدلالة بين معنيين: لازم، ومتعد. فهو بلاغ في ذاته، أي أنه مضمون رسالي جاء من رب العالمين يحمل عدداً من البلاغات الربانية إلى الناس أجمعين، ثم هو مقصود بـ (البلاغ) تكليفاً، أي بالتبليغ؛ ذلك أن (البلاغ) يرد في العربية بمعنى (التبليغ، والإبلاغ) أيضاً؛ فهو لفظ مزدوج الدلالة، وكذلك ورد في القرآن ــ جاء في لسان العرب: (والبَلاغُ: الإبْلاغُ. وفي التنزيل: {إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ} [الجن: 23]، أي لا أَجدُ مَنْجى إلا أن أُبَلِّغَ عن اللهِ ما أُرْسِلْتُ به. والإبلاغُ: الإيصالُ، وكذلك التَبْلِيغُ، والاسم منه البَلاغُ)[1].

هذا أصل عظيم في الدين وجب الثبات على تذكره والتذكير به، بلا ملل ولا خجل، والتأكد من سلامة استقراره في الوجدان الحركي للعمل الإسلامي؛ ذلك أن دوَّامة التدافع الدولي والاجتماعي المعاصر كفيلة بجرف الماء عن أبسط منطلقاته، وأوضح مبادئه، في أي لحظة من لحظات انغماسه الإداري والتنظيمي في وطيس الاستفزازات السياسية، والمنافسات التنظيمية، إلا أن يعتصم بالمناط الرسالي لعمله، يدور معه حيث دار وجـــوداً وعـــدماً، في كل أمـــره، جليلة وحقيرة.

---

[1]- لسان العرب: مادة (بلغ)، طبعة دار صادر، بيروت.

فالخلاصة إذن، هي أن الإسلام: رسالة مضمنة في متنها، أي في خطابها الحامل لمضمونها الرسالي، وهو القرآن الكريم الذي هو متن الرسالة، ثم السنة النبوية التي هي ملحقها الشارح، تلك هي أول مراتب {اهدنا الصراط الْمِسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6].

إن تجديد الدين يقوم أساساً على تبين ما {الصِّرَاطَ الْمِسْتَقِيمَ}؟ ثم كيف الاستقامة عليه؟ وبغير ضبط (الحقيقة الرسالية) للقرآن يكون كل فعل من محاولات التصحيح خارج {الصِّرَاطَ الْمِسْتَقِيمَ}. وليس عبثاً أن يكون ذلك هو دعاء المسلم في كل صلاة، سبع عشرة مرة في اليوم والليلة على الأقل.

مهم جداً أن نستحضر في أذهاننا ووجداننا أن القرآن رسالة، جاءت تحمل (الهداية) للناس الحيارى ــ وكل الناس لولا الدين حيارى ــ ويرسم لهم معالم الصراط المستقيم، فتدبر قوله - تعالى -: ***{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}*** [الشورى: 52، 53].

هذه أول درجات الوعي التي يجب أن يحققها الداعية لذاته وللآخرين: (الإسلام رسالة)، متنها القرآن. إن الشعور بالمعنى الرسالي للقرآن إنما يتحقق على المستوى النفسي إذا تصور الداعية طبيعة الوجود البشري؛ ذلك أن الإنسان وقد جاء من عالم الغيب، قد أحاطت به حجب عالم الشهادة ففقد الاتصال بأصله الغيبي إلا ما كان من نداء الفطرة الخفي في قلبه. إن ميلاد كل شخص من بطن أمه ونزوله إلى الدنيا هو كنزول آدم - عليه السلام - من الجنة في عالم الغيب إلى الأرض؛ حيث تبدأ حجب الحياة الدنيا تنسج عليه غلائل النسيان وتغرقه في جزئياتها اليومية، فيضرب بعيداً عن استشراف السماء مرة أخرى؛ ومن هنا اقتضت رحمة الرب العظيم ــ وهو الرحمن الرحيم ــ أن يرسل الرسل إلى الناس: أنْ ***{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}*** [البقرة: 21، 22].

جاءت الرسالة من عالم الغيب لتربط الإنسان بأصله الحقيقي، ولتشعره بسعة الكون، وربوبية الخالق - عز وجل - المحيطة بكل شيء ثم لتعلمه بقصته كاملة من النشأة حتى المصير، وما له في ذلك كله وما عليه، فجاء القرآن لذلك في صورة (بلاغ) رباني. هذا مصطلح مهم جداً للتعرف إلى طبيعة القرآن: إنه (بلاغ) فيه دلالة عميقة جداً على (قصد التبليغ) لمضمون الرسالة؛ حتى يتم

العلم بها على التمام عند من قُصدوا بالتبليغ والإعلام، قال - عز وجل -: {*هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ*} [إبراهيم: 52].

بلاغ قادم من عالم الغيب، من فوق سبع سماوات إلى عالم الشهادة، إلى الإنسان المتحرك فوق هـــذه الأرض، وبين العالـــمَيْن مسافـــة رهيبـــة، لا تستطيع النفس استيعابها مهما أوتيت من قدرة على الخيال، فجاء القرآن رسالة تعبر تلك المسافات كلها لتلقي على الإنسان **خطاباً ربانياً عظيماً يحمل قضايا محددة قصدَ (إبلاغها) للإنسان، قضايا أو إن شئت فقل: (بلاغات) هي مناط مسؤوليته ووظيفته في الأرض.**

ولقد كان أول هذه البلاغات هو القرآن نفسه، أعني أن أول ما جاء القرآن ليبلغه إلى الناس هو هذا المعنى الرسالي للقرآن، حتى لا يقرأه أحد أو يستمع إليه بعيداً عن هذه الحقيقة الكونية الكبرى، فلا يستفيد من بلاغاته الربانية شيئاً.

إن أول ما يجب أن يعرفه الإنسان من القرآن هو طبيعة هذا القرآن، من حيث هو رسالة رب الكون مرسلة إلى واحد من أهم سكان الكون: الإنسان.. فكان ذلك هو البلاغ الأول للقرآن.

فلا سبيل إلى معرفة الحقيقة إلا عبر هذا القرآن أولاً، ولا يكون ما دونه من طرق المعرفة إلا توابع له وملاحق؛ فهو متن الرسالة التي أرسلها رب العالمين إلى الخلق، وما سواه شروح وتفاسير، قال - عز وجل -: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً} [الإسراء: 9،].

ومن هنا وجب أن تكون الخطوة الأولى في طريق المعرفة الربانية أن يتعرف الإنسان إلى القرآن الكريم، بل أن يكتشفه؛ ولذلك جاء الخطاب القرآني يحمل أمر القراءة للقرآن تلاوة وترتيلاً، وأمر التعلم للقرآن مدارسةً وتدبراً.

والتدبر هـــو غايـــة كل ذلك ونتيجتـــه؛ ولذلك قال - عز وجل -: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: 29]. فجعل غاية الإنزال للقرآن التدبر والتذكر، ولولا التدبر لما حصل التذكر الذي هو يقظة القلب، وعمران الوجدان بالإيمان؛ فالتدبر هو المنهج القرآني المأمور به لقراءة القرآن العظيم؛ قال - سبحانه -: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: 24]، {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} [النساء: 82].

ها هي الرسالة وصلت من رب العالمين إليك أيها الإنسان؛ فيه كل خصائص الكلام الرباني من كمال وجلال. أعني أن الله يخاطب به الكل والجزء في وقت واحد، ويحصي شعور الفرد والجماعة في وقت واحد. قال جل جلاله: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: 24]، {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا} [النساء: 82]..

فتدبر!

الإسلام هو مضمون الدعوة وموضوع الرسالة، والرسالة لها مقومات متعددة، فهي رسالة العقيدة الموافقة للفطرة، ورسالة العبادة الدافعة للعمارة والبناء، ورسالة العقل المستنير بالوحي، ورسالة الإيمان المقترن بالعمل، ورسالة الدنيا المتواصلة مع الآخرة ...

ومن خصائص رسالة الإسلام:

الربانية :

ربانية المصدر: الأمان من الأهواء - الكمال

ربانية الغاية والجهة: إدراك الغاية من الوجود — أمان من القلق والتمزق — محبة الله

الإنسانية

الشمول

الوسطية

السماحة

المرسل: صفات القائم بالاتصال

الداعية: هو الركن المهم في هذه العناصر، والمحور الأساس في الدعوة إلى الله تعالى، ومقامه مقام بالغ الأهمية والخطورة، فهو ينوب عن الأنبياء في تبليغ أعظم رسالة في الوجود، من أعظم مرسل لها، لأعظم أمر وجد له الإنسان، فكيف لا يكون شأنه عظيماً، ومكانته رفيعة.

وتأتي أهمية الداعية من كونه أسوة للمدعوين، فكثير من المدعوين يتأثرون بالأفعال أكثر من تأثرهم بالأقوال، وكثير منهم يرى أكثر مما يسمع، فتكون رؤيته أوعى من سمعه.

قال تعالى: ﴿ **اللّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النّاسِ..**﴾ الآية. [الحج: 75]

والاصطفاء في اللغة يعني:

كما يجعل أفعالهم مكملة لرسالته، ويأمر الناس بالاقتداء بهم.

قال تعالى: ﴿ **لّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ..**﴾ الآية. [الأحزاب: 21]

وقال تعالى: ﴿ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ..**﴾ الآية. [الأنعام: 90]

فأفعال الأنبياء جزء من الوحي... فهي مكملة له.[1]

قال الشيخ ابن سعدي[2]: ((أي يختار ويجتبي من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً يكونون أزكى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق)).

ذلك لما لشخصية الداعية وصفاته وأسلوبه من أثر بالغ في المدعوين، فكثيرًا ما يتأثر المدعوون تأثراً ملحوظاً، بشخصية الداعية، وأسلوبه، وأخلاقه ومعاملته، أكثر من تأثرهم بما لديه من طرح وموضوع وما عنده من علم ومادة.

ويدفعهم هذا التأثر في كثير من الأوقات إلى التسليم لأفكاره، والاستجابة لدعوته، دون معارضة، ولا تقديم بين يديه.

ولذلك كلما اتصف الداعية بالأوصاف الحميدة، كان أثره في الدعوة أكبر، واستجابة الناس له أكثر.

---

1 – ثمة تفصيل في أفعال الأنبياء سطور في كتب أهل العلم ليس هاهنا محله.

والمقصود هاهنا تعظيم أفعال الأنبياء في وجه الحملة الشرسة لفضل الأنبياء وأفعالهم، بل وأقوالهم عن الكتب المترلة وبخاصة القرآن الكريم العظيم.

2 – في تفسيره: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، سورة الحج، آية: 75.

لهذا وجب على الداعية أن يتحلى بصفات مخصوصة، وميزات محمودة، وأن يلتزم بأخلاق معينة مؤثرة، وبتصرفات محمودة، كي تثمر دعوته، وتؤتي أكلها، وإلا انعكست آثار ذلك على الدعوة سلباً. ومن هذه الصفات:

الأولى: الإخلاص:

إن دعوة الإسلام ليست كأي دعوة من الدعوات التي يكفي فيها أن يتحدث الإنسان عن دعوته، دون أن يكون مؤمناً بها مخلصاً لها. عاملاً بصدق بمبادئها.

إن دعوة الإسلام تشترط على أصحابها، أن يكونوا أتقياء في أنفسهم، صادقين في دعوتهم، مخلصين في نياتهم، كي يحققوا نجاحهم في دعوتهم، وينالوا أجرهم عند ربهم.

وهذا شرط في كل عمل من أعمال الإسلام، ومن أجلّها الدعوة إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ **أَلاَ لِلّهِ الدّينُ الْخَالِصُ..**﴾. [الزمر: 3]

وقال سبحانه: ﴿**قل إني أُمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين..**﴾. [الزمر: 11]

وكلما كان الإخلاص أصدق، والإيمان أقوى، كان التوفيق أعظم، والأجر أكبر.

والتقوى لازمة للداعية، لزوم الماء للشجر، والروح للجسد، وهي العمل بدين الله ظاهراً وباطناً، وبخاصة فيما يدعو إليه، وإنّ امرءاً لا يعمل بما يدعو إليه، حري أن لا يوفقه الله عز وجل إلى ذلك، ولا يقبل منه عمله.

قال تعالى: ﴿ **إِنّمَا يَتَقَبّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتّقِينَ** ﴾. [المائدة: 27]

ولأهمية التقوى: جاء الخطاب بتقوى الله مفرداً بسيد الدعاة بالنبي صلى الله عليه وسلم في أول سورة الأحزاب ﴿ **يَا أَيّهَا النّبِيّ اتّقِ اللّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ [الأحزاب: 1]

ولا شك أن الأمة كلها مطالبة بهذا، لكن توجيه الخطاب للنبي له مقصود كذلك.

وبالتقوى، يحصل توفيق عظيم، وسداد للأقوال، وإصلاح للأعمال.

قال تعالى: ﴿ **يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ اللّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً** ﴾ [الأحزاب: 70، 71]

وقال تعالى: ﴿ **يا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوَاْ إَن تَتّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفّرْ عَنكُمْ سَيّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الأنفال: 29]

وفضلاً عن هذا؛ فإن لتقوى الداعية أثراً بالغاً في المدعوين، فإن النفوس جبلت على قبول دعوة الصادق، والنفور من دعوة الكاذب، ولا مقياس للصدق والكذب عند معظم المدعوين إلا أفعال الداعية، ومطابقتها لما يدعو إليه.

فإن العمل بما يُدعى إليه، يوحي إلى الناس صحة الدعوة، وصدق الداعي، مما يورث القبول عندهم.

وعدم العمل بالعلم، وما يدعو إليه الداعية، يوحي إلى الناس فساد الدعوة، وكذب الداعي، مما يورث النفور و الاستهجان.

ولهذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، متنبهين أشد التنبه لهذا.

فكان أحدهم -وهو نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلم يقول لقومه: ﴿ **وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ [هود:88]

بل إن الأنبياء والرسل جميعاً، كانوا يتصفون بالصدق قبل بعثتهم، وما صفة الأمين التي وُصِفَ بها النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته بغائبة يومئذ عن أذهان العرب[1] وكذلك قول قوم صالح لصالح: ﴿ **يَصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـٰذَا..** ﴾ الآية. [هود: 62]

فهي شهادة من أعدائه بصدقة، وعلو منزلته فيهم قبل البعثة.

هذا من جهة المدعوين، وأما من حيث رب الدعوة والمدعوين وأجره، فإن للداعية العامل بما يدعو إليه أجراً عظيماً عند الله.

وقد سبقت الأدلة على ما للداعية من أجر عظيم على دعوته، وإخلاصه في باب فضل الدعوة، مما لا حاجة لتكرارها.

وكما أمر الله عز وجل بالعمل بما يدعو إليه الداعية، حذر من مغبة عدم العمل بما يدعو إليه.

قال تعالى: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ** ﴾. [الصف: 2، 3]

وقال صلى الله عليه وسلم: ((يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برَحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه).[2]

فحري بالداعية أن يكون تقياً، كيما يقبل الناس دعوته، وكي يقبل الله عمله.

---

[1] - أخرجه أحمد (15504) بلفظ: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم – قبل البعثة- فقالوا: أتاكم الأمين..

[2] - البخاري (3267، 7098)، مسلم (2989).

-وأي ثمرة يجنيها الداعية- إذا لم يكن تقياً -واستجاب له كثير من الناس، ثم جاء يوم القيامة صفر اليدين قد أبطل الله عمله لعدم إخلاصه، وقلة تقواه.

وفضلاً عما للتقوى من أثر في التوفيق، وأجر عند الله.

فإن التقوى من أعظم عوامل الثبات على الطريق في وجه الأعاصير، ومن أقوى دروع وقاية الداعية من كيد الأعداء.

قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً..** ﴾. الآية [آل عمران: 120]

وقال تعالى: ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِيَ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنّ مِنَ الّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الّذِينَ أَشْرَكُوَاْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتّقُواْ فَإِنّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾. [آل عمران: 186]

فجعل سبحانه الصبر والتقوى أهم سلاح الداعية في مواجهة الفتن، والثبات على الحق.

الصفة الثانية:العلم بما يدعو إليه:

إن من أعظم ضروريات الدعوة إلى الله تعالى أن يكون الداعية عالماً بعامة، مدركاً لما يدعو إليه فقيهاً فيه بخاصة.

قال ابن تيمية: (فلابد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحباً في هذه الأحوال؛ وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعاً؛ ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد: "لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به؛ فقيهاً فيما ينهى عنه؛ رفيقا فيما يأمر به ؛ رفيقاً فيما ينهى عنه؛ حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه").[1]

فالفقه قبل الأمر، ليعرف المعروف وينكر المنكر، وهذا شرط من شروط الدعوة إلى الله، وواجب من واجبات الداعية.

قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَـــذِهِ سَبِيلِيَ أَدْعُو إِلَىَ اللّهِ عَلَىَ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾. [يوسف: 108]

والبصيرة أخص من العلم العام، وفيها معنى زائد عنه.

---

[1] - مجموع الفتاوى [137/28] قلت: هذا الحديث لا يصح سنداً، وإن كان صحيح المعنى، أخرجه ابن عساكر (328/2) كما في تهذيب تاريخ ابن عساكر، وفيه سلم بن ميمون الخواص، أورده الذهبي في الضعفاء رواه عن زافر، وقال ابن عدي: لا يتابع على حديثه.

فهي تعني: البينة والإدراك، و الوضوح، والفهم، واليقين..[1]

وهكذا ينبغي أن يكون الداعية، مدركاً لما يدعو إليه، متحلياً بالفطنة، متسلحاً باليقين، ثابت الخطوة، واضح الرؤية في دعوته، ومدعويه، وفيمن حوله، وما حوله من أحداث.. وأصدقاء وأعداء، فكل هذه المعاني تتضمنها ((البصيرة)) هذا الشرط الذي ألزم الله به الدعاة في دعوتهم.

ولهذا فلا يجوز للمسلم أن يدعو إلى الله إلا بعد أن يحمل قدراً من العلم يكفيه في دعوته، وفهماً ووضوحاً، ينير له طريقه.

فالعلم يسدد له مسيرته، والفهم يوضح له رؤيته، فمن لم يحمل العلم في دعوته انحرف، ومن لم يكن على بصيرة تعثر.

وفضلاً عن هذا، فإن للداعية بغير بصيرة إثماً عند الله،.. لمخالفة أمر الله، ولأن فاقد البصيرة (العلم والفهم) لا يضل نفسه فحسب، بل يضل معها غيرها ممن يدعوهم.

وَمِنَ النّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتّبِعُ كُلّ شَيْطَانٍ مّرِيدٍ ﴾. [الحج: 3]

فلربما جعل الأمر نهياً، والنهي أمراً، والمعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة، والبدعة سنة.

ولربما دعا إلى أمر غير مشروع، باسم الدين، كمن يخرج على الحاكم المسلم العاصي، وكمن يعلم الناس الضلال والابتداع باسم الدين، كالخوارج والمعتزلة، وغلاة الصوفية والروافض.

ولذلك حذر الله من أمثال هؤلاء فقال سبحانه:

وَإِنّ كَثِيراً لّيُضِلّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. [الأنعام: 119]

وقال تعالى: **﴿ وَمِنَ النّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلّ عَن سَبِيلِ اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾**. الآية [لقمان: 6]

وقد عدّ الله كل قول بغير علم افتراءً، فكيف إذا كان في الدين والدعوة إليه.

قال تعالى: **﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ..﴾** الآية [الإسراء:36]

وقال سبحانه بعد أن عدد بعض أقوال الكافرين وأفعالهم الكفرية قال: **﴿ قَدْ خَسِرَ الّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَآءً عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾**. [الأنعام: 140]

---

[1]- راجع مادة بصر. لسان العرب. تهذيب اللغة. بصائر ذوي التمييز. مقاييس اللغة.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 33]

ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من سمع مقالته أن يعيها حين يبلغها، فقال صلى الله عليه وسلم ((نضر الله امرءًا سمع منا شيئا فبلغه كما سمع، فرُبَ مبلغ أوعى من سامع)).[1]

ولأهمية هذا؛ عقد الإمام البخاري باباً في صحيحه ((باب العلم قبل القول والعمل))، فإن العلم يسدد القول، ويصوب العمل.

قال العسقلاني[2]: ((قال ابن المنير: أراد به: أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما)).

قال أبو حيان الأندلسي[3]: ((لأن الدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يصلح إلا لمن علم المعروف والمنكر، وكيف يرتب الأمر في إقامته، وكيف يباشر، فإن الجاهل ربما أمر بمنكر، ونهى عن معروف.. وقد يغلظ في مواضيع اللين، وبالعكس)).[4]

ومن الجدير بالعلماء تنبيه الناس في هذا المقام إلى أمرين:

الأول: أن الحفظ غير الفقه، وأن البصيرة درجة زائدة على العلم، فإن كثيرًا من الناس يظنون: أن مجرد الحفظ هو العلم، وهذا هو الذي أوقعهم في التعالم، ودفعهم إلى التقول على الله مالم يقل، وإصدار الأحكام التي ما أنزل الله بها من سلطان، وهو يظن بحفظه هذا، أنه عالم بل علامة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((فرب رجل يحفظ حروف العلم التي أعظمها حفظ حروف القرآن، ولا يكون له من الفهم))[5].

فليس كل حامل علم يحمل فقهاً، وبصيرة، فحمل العلم شيء، والفقه فيه، والبصيرة بإعماله شيء آخر.

الثاني: التنبيه إلى الفرق بين العلم وبين التعالم، أو بين العالم والمتعالم، والتأكيد على ذلك في الدروس والخطب واللقاءات [6]

---

1 - أخرجه الترمذي (2657)، وغيره، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

2 - في الفتح (166/1).

3 - هو محمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي، المفسر المعروف.

4 - تفسير البحر المحيط (20/3).

5 - الفتاوى (397/11).

6 - إن الإنسان ليعجب أشد العجب من خلو المحاضرات والخطب والدروس من مثل هذا التأصيل والنصح، الأمر الذي جعل فراغاً كبيراً في فهم المنهج وقضاياه.

فإن كثيراً ممن يَدْعون ويَضلون، ويُضلون يظنون أنهم علماء، وهم متعالمون، وذلك لعدم تفريقهم بين العلم والتعالم، كالخوارج والمعتزلة والجهمية وإخوانهم من كل فرقة حاشا أهل السنة والجماعة، ولذلك يجب التركيز في دروس العلماء على بيان الفروق بين العلم والتعالم، وبين العالم والمتعالم.

فإن كثيراً منهم أصحاب نيات حسنة، فلعلهم يرجعون.

ومن الجدير ذكره قبل نهاية هذا الباب: أن شرط العلم، ليس على إطلاقه: بأن يكون كل داعية عالماً بجميع العلوم.

كلا، بل الشرط أن يكون عالماً فيما يدعو إليه الداعية.

وكلما كان الداعية أعلم، كان أفضل، ورب داعية عنده بصيرة وعلم فيما يدعو إليه، خير من عالم نحرير فاقد للبصيرة.

والمقصود بالعلم العام الذي أُلمح إليه في أول هذا الباب: أن يكون لدى الداعية علماً عاماً بالتوحيد، وأنواعه، وأركان الإيمان، والإسلام، وأسس الدين ومعاني الأصول فيه، كالاتباع والابتداع، ومعنى العبادة وأنواعها، وأحكامها وجوباً ونفلاً.. ومعرفة الأحكام الخمسة وتعريفها..: الواجب، والمندوب، والحرام، والمكروه، والمباح، وما شابه ذلك.

وإذا تعين على المسلم بيان أمر، أو النصح به، أو الأمر به، أو النهي عنه، وكان يعلمه علماً صحيحاً، وجب عليه أداء الأمانة على قدر ما علم، ولا يشترط في الداعية أن يكون عالماً مطلقا، ولاأن يعلم تفصيل ما سبق.

الصفة الثالثة: الصبر والحلم:

إذا كان العلم شرط الداعية إلى الله، وسبب سداده، فإن الصبر عتاده وسلاحه، ولا قتال بلا سلاح ولا مواجهة بلا عتاد.

وإذا كانت البصيرة واجبة على الداعية، وهي نوره في دعوته، فإن الحلم وقوده.. ولا سير بلا وقود.

ومن قاتل بغير سلاح فشل.. ومن سار بغير وقود انقطع..

لأجل هذا كان من أوائل ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، الأمر بالصبر مقروناً بالدعوة إلى الله ﴿ **يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنذِرْ* وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ* وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ* وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ* وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ* وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾. [المدثر: 1-7]

وقال صلى الله عليه وسلم ((وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر))[1].

---

[1] - البخاري (1469، 6470)، مسلم (1053).

والصبر في باب الدعوة إلى الله يعني: ضبط النفس على الاستمرار في طريق الدعوة مهما لاقت، وحبسها عن الإساءة للمدعوين قولاً وفعلاً، والصبر يعني: عدم الانتقام حين الأذى، وعدم الانقطاع عن الدعوة حين الملل، وعن اليأس حين الفشل.

وبعبارة أخرى: عدم الاستجابة لردود فعل النفس، والتسرع في التصرف حيال المواقف.

لذا كان القرآن والسنة حافلين بالاهتمام بالصبر، لما له من أثر كبير في استمرار الداعية، وعدم نفور المدعوين.. وقبول الدعوة إلى الله تعالى.

ولذلك عد الله سبحانه الصبر مع التقوى من عزائم الأمور، قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ [آل عمران: 186]

بل جعل الله الصبر على الأذى من منهج الأنبياء، فقال سبحانه عن الأنبياء: ﴿ **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىَ مَآ آذَيْتُمُونَا..** ﴾ الآية [إبراهيم: 12]

ومن المعلوم أن نقيض الصبر ؛ التضجر والانقطاع.. ومن تضجر نفر الناس منه، ثم انقطع عن دعوته، فخسر نفسه والمدعوين معه.

ويا ليت الأمر يقف عند هذا الحد، ولم يتسرع في تصرف، ربما انعكس على الدعوة بالسوء، والتراجع.

ومن لم يصبر ويحلم عمن آذاه انتقم لنفسه، ومن انتقم لنفسه، خسر نفسه ودعوته، وأجره عند ربه.

ولذلك قرن الله بين الصبر والحلم والعفو، وعد ذلك من عزم الأمور، فقال سبحانه:

وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: 43].

والحلم شعبة أساس من الصبر.

قال أهل اللغة: الحلم: الأناة والعقل، وحَلُم: تأنّى وسكن عند غضب، أو مكروه، مع قدرة وقوة.

والحليم: الذي لا تستخفه الأفعال المؤذية، ولا يستفزه الإغضاب [1].

وقد أفاد العلماء: أن العلم والفقه، يكونان قبل الدعوة، ليكون الداعية ذا بصيرة قبل أن يخطو في دعوته، حتى لا يزل.[2]

ويكون الصبر، أثناء الدعوة، لكي يتحمل ردود فعل المدعوين، من أذى واتهام، وحتى يستمر في دعوتهم، ولا يتضجر منهم، ولا ينقطع عنهم..

---

[1] راجع مادة حلم في لسان العرب وتهذيب اللغة والمعجم الوسيط.

[2] - راجع كلام ابن تيمية ص( ) من هذا البحث.

ويكون الحلم بعد الدعوة، كي لا يحقد على من سخر منه، أو استخف به، ولا ينتقم ممن آذاه، بل على الداعية أن يتوقع الأذى، وأن يعد له عدته من الصبر والحلم، فهذه هي عزائم الأمور، لا غير ذلك من التضجر والحقد، ومد اليد والانتقام التي هي سبب الخور والفشل.

لأجل هذا أمر الله الدعاة بالصبر على ما يلقونه من أذى.

قال تعالى حاكياً قول لقمان لابنه ﴿ **وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ إِنّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾. [لقمان: 17]

ولما أمر الله تعالى نبيه بالدعوة إليه، أرشده إلى وجوب الصبر فيها، فقال سبحانه:

وقال سبحانه: ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً** ﴾ [المزمل: 10]

ونبه الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم والدعاة من بعده، بما كان من أمر نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام إذ لم يصبر في دعوته فكان من أمره ما كان.

وهؤلاء الذين يتعجلون في المواجهة، إنما تعجلوا فيها، لأنهم فشلوا في مجال الدعوة، ولم يصبروا عليها، فتحولوا إلى المواجهة، فكان الفشل أبشع، والنتائج أشنع.

ولم يكتف الله عز وجل بالأمر بالصبر في الدعوة والحلم فيها، بل أمر بعدم الرد على أذى المدعوين وعدم الالتفات إليهم، قال تعالى: ﴿ **وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَىَ بِاللّهِ وَكِيلاً** ﴾. [الأحزاب: 48]

أي: امض في دعوتك، وثابر في تبليغك، متوكلاً على الله غير ملتفت إلى عناد المعاندين من الكافرين، وخداع المخادعين من المنافقين، ومتكرث بأذاهم، ولا مشغول عن دعوتك بكيدهم.

وهكذا كانت سيرة الأنبياء من قبل، لا يعرفون في سبيل الدعوة إلى الله عنفاً، ولا انتقاماً.. إلا صبراً وغفراناً، ولذا لم نجد نبياً من الأنبياء، واجه بالقوية المادية في مقام الدعوة على الإطلاق، قال تعالى منبهاً نبيه الكريم ومن تبعه إلى ذلك: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرّسُلِ** ﴾ [الأحقاف: 35]

فهذا نوح عليه الصلاة والسلام، مكث في قومه تلك المدة الطويلة، ألف سنة إلا خمسين عاماً، لم يضرب أحداً، ولم ينتقم من أحد، على كثرة ما أوذي، وعلى كثرة ما سُخر منه.

وهذا إبراهيم أبو الأنبياء، وموسى وعيسى من بعده عليهم الصلاة والسلام جميعاً، لم يُعرف عنهم إلا الحلم على الناس والصبر على أذاهم.

ولذلك ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام المثل العظيم، والقدوة المثلى في الصبر، والحلم على الذين آذوهم في الدعوة إلى الله تعالى، مع القدرة على أخذ الحق.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل))[1].

ومن ذلك ما جرى يوم فتح مكة وغيرها من المواقف النبيلة، والأخلاق الرفيعة، وقصة الذي أراد أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة معلومة إذ الرجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة، فأخذ سيف رسول الله وقال من يمنعني منك قال ((الله)) فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يمنعك مني، قال: كن كخير آخذ، قال أتشهد أن لا إله إلا الله، قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك... فخلى سبيله، قال: فذهب إلى أصحابه قال قد جئتكم من عند خير الناس... الحديث[2]

وقد حذر الله من الاستعجال بعامة، ومن استعجال الدعاء عليهم بخاصة، إذا ما تأخرت استجابة المدعويين، لمنافاة الاستعجال للصبر، بل الاستعجال ناقض من نواقضه.

قال تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لّهُمْ..**﴾. الآية [الأحقاف: 35]

أي: ليكن الرسل الأولون قدوتك في الصبر على الدعوة إلى الله، وعدم الاستعجال لهم، قال القرطبي: ((ولا تستعجل لهم، قال مقاتل: بالدعاء عليهم، وقيل: في إحلال العذاب بهم))[3] وكذا قال ابن كثير.[4]

وقال البقاعي في نظم الدرر: ((كما أمره بالصبر الذي من أعلى الفضائل، نهاه عن العجلة التي هي من أمهات الرذائل، ليصلح التحلي بفضيلة الصبر الضامنة للفوز والنصر: فقال: ﴿**ولا تستعجل لهم**﴾، أي: تطلب العجلة وتوجدها بأن تفعل شيئا مما يسوءهم في غير حينه الأليق به)). [5]

---

[1] - رواه مسلم (2328).

[2] - أحمد (365/3) (14929) وأصل القصة في الصحيحين البخاري (2910)، مسلم (843).

[3] - الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (221/16-222).

[4] - انظر تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (185/4).

[5] - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (146/7)

قال سيد قطب: ألا إنه لطريق شاق.. طريق هذه الدعوة، وطريق مرير، حتى لتحتاج نفس كنفس محمد صلى الله عليه وسلم في تجردها وانقطاعها للدعوة، وفي ثباتها وصلابتها، وفي صفائها وشفافيتها، تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر، وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين، نعم، وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر، وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة، من رحيق العطف الإلهي المختوم.[1]

ويؤكد هذا المعنى: ما أخرجه البخاري عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ قال: ((كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك دينه، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعا إلى حضرموت، لا يخاف إلاّ الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)).[2]

ففي هذا الحديث العظيم؛ منع استعجال الدعاء – مجرد الدعاء على كفار قريش – وطلب النصر من الله عليهم ((ألا تدعو الله لنا، ألا تستنصر لنا)).

وعدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا استعجالاً من أصحابه، والاستعجال ضد الصبر، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم -لما طلبوا الدعاء-: ((ولكنكم تستعجلون)).

كما حذر الله الدعاة من ردود الفعل، وسلوك مسلك الرعونة، والخفة في الاستجابة لاستفزازات المدعوين، الأمر الذي يتنافى والصبر.

فقال تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ** ﴾ [الروم: 60]

واستفتاح الله عز وجل الآية بالصبر فيه، إشارة إلى اتخاذ الوقاية من الاستخفاف به.

قال البقاعي في تفسيره: ((ولا يستخفنك))، أي: يحملنك على الخفة، ويطلب أن تخف باستعجال النصر، خوفاً من عواقب تأخيره، أو بتفتيرك عن التبليغ))[3]، وقريباً من هذا قال معظم المفسرين.

وقال سيد في الظلال عقب الآية ﴿**ولا يستخفنك..**﴾: ((إنه الصبر، وسيلة المؤمنين في الطريق الطويل الشائك، الذي قد يبدو أحياناً بلا نهاية، والثقة بوعد الله الحق، والثبات بلا قلق، ولا زعزعة،

---

[1]- في ظلال القرآن، لسيد قطب (3276/6).

[2]- رواه البخاري (3612، 6943).

[3]- نظم الدرر (647/5).

ولا حيرة، ولا شكوك،.. الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين، ومن تكذيبهم للحق، وشكهم في وعد الله. ذلك أنهم محجوبون عن العلم، محرومون من أسباب اليقين، فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله، فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين: مهما يطل هذا الطريق، ومهما تحتجب نهايته، وراء الضباب والغيوم!)).[1]

وقبل مغادرة هذا الباب ينبغي التنبيه إلى أمرين.

الأول: التفريق بين مقام الدعوة الذي وسيلته الصبر على الأذى، والحلم بالمدعوين، وبين مقام القضاء والسلطان الذي من حقه الحكم والعقاب.

فهذان بابان مختلفان، يخلط بينهما كثير من الناس، فلا يفرق بين وجوب الصبر في الدعوة إلى الله، والحلم على المدعوين، وبين مقام القاضي والسلطان في حال الاعتداء.

وعدم التفريق بينهما، أوقع كثيراً من الدعاة في وضع الأمور في غير محلها، وفي اضطراب في التصرف وانحراف في المنهج.

الأمر الثاني: أن الصبر والحلم لا يتأتيان بقراءة الكتب، وحضور الدروس، والاستماع إلى المحاضرات، وإنما يحتاجان إلى تدرب عليهما، ولا يتم ذلك إلا بالتربية، وما يقع من كثير من الناس من عدم الصبر والتضجر والانتقام، والتصرفات المنحرفة إلا لفقدان التربية على ذلك.. وربما فقد ذلك كثير من الشيوخ أنفسهم، وفاقد الشيء لا يعطيه، لذا وجب الاهتمام البالغ بالتربية في منهجنا العملي الدعوي.

الصفة الرابعة: العفو والصفح:

لاشك أن من لوازم الصبر العفو، ومن مقتضيات الحلم التسامح، لكن إفراد هاتين الصفتين بالذكر، كان لما لهما من أهمية بالغة، في قبول دعوة الداعية أو ردها.

فإن من لوازم الدعوة؛ حصول الأذى بالمدعو، ونزول الضراء به.

ولما كانت النفوس قد طبعت على الإعراض عن المؤذي، أو الانتقام منه، وجبلت نفوس المدعوين على رد دعوة المنتقم، والنفور منه، فيخسر حينئذ الداعية، ويفر المدعوون، وتتوقف الدعوة، ولا تتم هداية المخلوقين.

لذلك أمر الله الداعية بالعفو، والتسامح مع المدعوين، حتى تكون القلوب صافية، والنفوس كريمة، فيقبل المدعوون على الدعوة، ويقبلونها، ولا ينفرون منها، أو يواجهونها، لذلك قرن الله العفو

---

[1]- في ظلال القرآن (2778/5)

بالصبر، وجعل ذلك من عزائم الأمور، فقال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: 43]

وقال تعالى مخاطباً المسلمين عامة، والدعاة خاصة: ﴿ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّىَ يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ ﴾. [البقرة: 109]

لذلك كان لزاماً على الداعية إلى الله أن يتحلى بالعفو، وأن يتصف بالتسامح، وسرُّ ذلك: أن بعض المدعوين يكونون جهلاء، وأصحاب أهواء، ويرون أن دعوتهم هو تدخل في شؤونهم الخاصة، وحجز لحريتهم المطلقة.

لذلك يقومون بردود فعل قولية، وأحيانا عملية.. من شتم أو ضرب أو حقد.

والعفو والتسامح في مقام الدعوة يعني: مسح ما يعلق بالقلب من أثر الأذية، وغسل ما في النفس من حب الانتقام، والإقبال على المدعوين بوجه طلق، ونفس رضية، كأن شيئاً لم يكن منهم، فلا يكون في نفس المدعو حقد على من آذاه، ولا رغبة بالانتقام ممن أضر به، بل كلما أوذي عفا، وكلما تضرر سامح.

قال تعالى: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ ﴾. [آل عمران: 134]

وقال صلى الله عليه وسلم: ((وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزاً))[1].

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الإيمان، قال: ((الصبر والسماحة))[2].

وهذان خلقان من أعظم أخلاق المسلم، فمن باب أولى أن يتحلى بهما الداعية.

ولا أدل على ذلك مما كان بين الأنبياء جميعاً وأقوامهم وبخاصة بين رسول الله محمد صلى الله عليهم وسلم وقومه.. فمع الأذى الكبير الذي أصابه صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم من كفار قريش، كان شعارهم: العفو، وكانت سجيتهم التسامح.

وقصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهل الطائف الذين ردوه، وآذوه حتى أدموه، وسخروا منه مشهورة معلومة[3].

1- رواه مسلم (2588).

2- رواه ابن أبي شيبة في المصنف (167/6)، وفي الإيمان (43)، وقال الألباني: حديث صحيح رجاله ثقات لولا عنعنة الحسن وهو البصري لكن له شاهداً من حديث عمرو بن عبسة في (المسند385/4)، وآخر من حديث عبادة بن الصامت (318/5-319).

3- انظر السيرة النبوية، لابن هشام. [67/2 وما بعدها]

فما زاده ذلك في دعوته إلا ثباتاً، وما زاده فيهم إلا عفواً وإحساناً، وكان يردد في مثل هذه المواقف قولته المشهورة: ((اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون))[1].

وموقفه صلى الله عليه وسلم من أهل مكة يوم فتحها في العفو عن أهلها الذين آذوه وصحبه أشد الإيذاء، أشهر من أن تسجل في مثل هذا البحث، وقد سجلت في سجل التاريخ الإسلامي الخالد.[2]

وقد عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأعرابي الذي شد ثوبه حتى أثرت حاشيته في عنق النبي صلى الله عليه وسلم.

وعفا عن الذي أراد قتله وهو قائل تحت الشجرة، وعفا.. وعفا... عليه صلوات ربي وسلامه إلى يوم يبعثون.

والتحلي بالعفو والتسامح له ثمار عظيمة منها:

طيب نفس الداعية، وانشراح صدره، فإن العفو والتسامح يجعل النفس طيبة، مما يدفعها إلى مزيد من العطاء، ومزيد من الإقبال على الناس، ولو كانوا من المؤذين، وعدم التسامح يبعث الكمد في النفس بالحقد، ويغري القلب بحب الانتقام، الأمر الذي يدفع النفس إلى التراجع، ثم الانزواء عن الناس، وعن الدعوة.

وفي ذلك من الخسارة ماهو معلوم لكل عاقل.

الصفة الخامسة: التواضع والمخالطة:

كلما كان الداعية محبوباً لدى المدعوين، كانت استجابتهم لدعوته أكبر، واجتماعهم حوله أكثر.

ولا شيء يحبب الداعية إلى المدعوين كالتواضع، لذا أمر الله به وبالاختلاط بالناس.. وحرم ضده وهو التكبر.

قال تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ...**﴾ الآية. [الكهف: 28]

وقال تعالى: ﴿ **وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً** ﴾ [لقمان: 18].

---

[1]- رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (115/2، 130)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (247/62)، والضياء في الأحاديث المختارة (14/10).

[2]- السنن الكبرى للبيهقي(118/9)

وقال صلى الله عليه وسلم: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر..))[1] الحديث.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((وما تواضع أحد لله إلا رفعه))[2] الحديث.

وكان ابن عمر يدخل السوق لا يبيع ولا يشتري، لكن ليسلم على الناس، فكانوا إذا رأوه استبشروا، وانكبوا عليه، يستفتونه فيحل قضاياهم.

ولا شيء يساعد في نشر الدعوة، وتوسيع رقعتها، كالاختلاط بالناس، ومعرفة أحوالهم، والوقوف مع متطلباتهم،ومدارسة مشكلاتهم.

لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((المسلم الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)).[3]

وقد مضت سنة الأنبياء في تواضعهم، ومخالطتهم في معايشهم، وفتح أبوابهم، وتوسعة صدورهم.

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة، فكان ز يخالط أصحابه فيزوج عزبهم، ويعود مريضهم، ويتفقد أحوالهم، ويشيّع ميتهم، ويعين فقيرهم، بل كان يعود المريض من أعدائه فقد عاد رسول الله ز ابناً ليهودي..، فعن أنس قال: كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: ((أسلم))، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم، فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: ((الحمد لله الذي أنقذه من النار)).[4]

وكانت الأَمَة تأخذ بيده بالمدينة فيطاوعها، فعن أنس بن مالك قال: إن كانت الأَمَة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنطلق به في حاجتها.[5]

فإن شئت أن يكون طبيباً رأيته طبيباً، وإن شئت أن تراه مصلحاً بين الناس كان مصلحاً، وإن شئت أن تجده بائعاً وشارياً كان كذلك.

وحسبك أن امرأة شكت إليه قلة جماع زوجها[6].

1- رواه احمد (412/1، 451)، ومسلم (91).

2- رواه مسلم (2588).

3- رواه أحمد (43/2) (رقم 5022)، والترمذي (2507)، وابن ماجه (4032) وقال (512/10)، وقال: أخرجه ابن ماجه بسند حسن.

4- رواه البخاري (1356، 5657).

5- رواه أحمد (98/3)، وابن ماجه (4177)، وعلقه البخاري (6072) وانظر صحيح ابن ماجه (3367).

6- رواه احمد (106/6، 226)، وعبد الرزاق في مصنفه (10375)، والطبراني في الكبير (25/9-26)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (301/4): وأسانيد أحمد رجالها ثقات إلا أن طريق: "إن أحشاها" أسندها أحمد ووصلها البزار برجال ثقات.

وزار صاحباً له وكان في البيت غلام، قد حبس طيراً له في قفص فمات، فحزن عليه، فقال له الرسول ز مداعباً ومواسياً: ((يا أبا عمير ما فعل النغير)).[1]

وجاءه مرة رجل ليشكو له انطلاق بطن أخيه، فأمره أن يسقيه عسلاً...، فعن أبي سعيد أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: ((اسقه عسلا)) ثم أتى الثانية، فقال: ((اسقه عسلا))، ثم أتى الثالثة فقال: ((اسقه عسلا))، ثم أتاه فقال: قد فعلت؟ فقال: ((صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلا)) فسقاه فبرأ.[2]

فانظر إلى هذا التواضع الجم، والمخالطة النافعة. أُيسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مرض يستحي المرء من إخبار الناس به.. أيداعب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولداً، وهو الرسول العظيم، والقائد الكبير، والسلطان المهيب.

ذلكم هو التأديب الذي أدبه الله عز وجل به، ووعظه به قائلاً: واخفض جناحك للمؤمنين.

وحذره من مغبة الكبر، والجفاء مع الصالحين فقال له: ﴿ **وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ..**﴾ الآية. [الأنعام: 52]

ولما اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم في مسألة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه فعبس في وجهه، جاءه التأديب الرباني ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىَ* أَن جَآءَهُ الأَعْمَىَ...**﴾.[3] [عبس: 1، 2]

وانظر -يا رعاك الله- إلى هذا التواضع والمخالطة وأثرهما في المدعوين،إذ كان لهذا التواضع والمخالطة، أثر عظيم في نفوس أصحابه، صدقاً وتربية وعملاً، جعلتهم خير أمة أخرجت للناس.

وليس ببعيد أن يعزى أسباب تلك الفجوة بين الناس بعامة والشباب بخاصة من جهة، وبين العلماء والدعاة من جهة أخرى، إلى انعزال بعض الدعاة والعلماء، وإغلاق أبوابهم، وعدم مخالطتهم الناس،

---

[1]- رواه البخاري (6129، 6203)، مسلم (2150).

[2]- البخاري (5684، 5716)، مسلم (2217)، انطلاق البطن: مرض يقال له في عصرنا: الإسهال.

[3]- عاب بعض الدعاة على من يقرأ هذه السورة، لأن فيها عتاباً للرسول صلى الله عليه وسلم مدعياً أن هذا العتاب من الله له، ولا ينبغي أن يكون منا له صلى الله عليه وسلم .. ولا شك أن قائل هذا غلبت عاطفته على علمه، وكان منه حكماً بغير دليل.. كيف وقد سطرها الله في كتابه إلى يوم يبعثون، وكيف وقد قال تعالى: ((واتل ما أوحي إليك من ربك...)) [سورة: عبس] إما أحي لنا.. لكل عقل هذا المسكين عن أن في هذا العتاب درساً تربوياً عظيماً.. وأننا معشر أهل السنة والجماعة كلما قرانا هذه السورة ازددنا حباً برسول الله صلى الله عليه وسلم وازددنا إجلالاً له.. وإذا كان هذا الداعية الذي عاب على من قرأ هذه السورة إذا كان هو يجد في نفسه على الرسول صلى الله عليه وسلم أو يجد قراءتها منقصة فهذا شأنه.. هداه الله إلى معرفة الدليل.. وعدم القول على الله بالعاطفة وبغير علم.

وتأففهم من الجلوس مع عوام الناس وفقرائهم، وحدثاء الأسنان، الأمر الذي أحدث فجوة، تغلغل من خلالها الأفكار الفاسدة، والمناهج المنحرفة.

بينما لو كان العالم الرباني مخالطاً للمدعوين، متابعاً للمتربين، لأدرك الأخطار من أول وهلة، ولعالج الانحراف أول حدوثه، كالطبيب المتابع لمرضاه، وأما إذا أعرض الداعية أو المربي، وانعزل عن المدعوين، تفشى الداء، وصعب بعد ذلك العلاج كالطبيب المهمل لمرضاه.

الصفة السادسة: حسن الخلق، وطيب العشرة

لا توجد صفة شخصية للإنسان أفضل من حسن الخلق، ولا صفة تحبب الناس به أعظم من طيب العشرة.

فقد طبع الناس على حب حسن الخلق، ولو كان من كافر، وعلى كراهية سوء الخلق، وعلى النفور من صاحبه، كائناً من كان.

قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضّواْ مِنْ حَوْلِكَ..** ﴾ الآية [آل عمران: 159]

ولا يجد الإنسان مدخلاً لقلوب الناس، كما يجده في حسن الخلق، ولا سبيلاً للاجتماع بهم والتآلف معهم، مثل طيب العشرة.

إن حسن الخلق تاج الإنسان وجماله المعنوي، فإذا تحلى به الداعية، أضفى شعوراً من الارتياح في نفوس المدعوين، وقبولاً كبيراً لدعوة صاحبه.

وكم قبلت عند الناس دعوة باطلة لتلبيس صاحبها بنعومة ألفاظه، وكم ردت دعوة صحيحة لجفاف صاحبها أو لسوء خلقه!

ولا غرو إن كان لب بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، إتمام مكارم الأخلاق.

قال صلى الله عليه وسلم: ((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))[1]، وفي رواية (مكارم الأخلاق).

قال تعالى: ﴿ **وَإِنّكَ لَعَلَىَ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾. [القلم: 4]

وللآية تفسيران جميلان: الأول: أن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم تتصف بالخلق العظيم.

والثاني أن ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم من شريعة ومنهج، ومعاملات ومسلك، هو خلق عظيم.

---

[1]- حديث صحيح لغيره، رواه أحمد (381/2)، وصححه الحاكم (613/2) ووافقه الذهبي وغيرهما.

قال ابن عباس: ﴿ وإنك لعلى خلق ﴾ إنك على دين عظيم وهو الإسلام، وكذلك قال مجاهد وأبو مالك والسدي والربيع وكذا قال الضحاك وابن زيد.[1]

وقال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾. [الأعراف: 199]

وقال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾. [آل عمران: 134]

والمجتمعات لا تبنى بعقيدة مجردة عن الخُلُق، ويخطئ من يظن أنها تُبنى على عقيدة مجردة عن الأخلاق، فلا بد أن يواكب العقيدة خلق يربط الناس، ويشتد فيما بينهم.

وإذا كانت العقيدة لَبِنات المجتمع، فإن الخلق ملاطها.

وبعبارة أخرى: إن التوحيد، والتقوى، والعبادة، والدعوة المجردة عن الخلق، لا تؤلف جماعة، ولا تقيم مجتمعاً سعيداً، وإذا كان الناس سينفضون عن رسول الله لو كان فظاً غليظاً -وحاشاه صلى الله عليه وسلم من ذلك- فمن باب أولى أن ينفضوا عمن هو دونه.

ولهذا جاءت النصوص محذرة المسلمين بعامة، والدعاة بخاصة من مغبة سوء الخلق، لما يجر من فساد على الدعوة بخاصة، والمجتمع بعامة.

قال تعالى محذراً الدعاة، وفي مقدمتهم سيدهم عليه الصلاة والسلام من عاقبة سوء الأخلاق: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: 159]، فإذا كان هذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو سيد الموحدين، وسيد المتقين وسيد العابدين.. فكيف بغيره.

إن الغفلة عن أهمية حسن الخلق في مقام الدعوة، دفع كثيراً من الناس إلى النفور من أصحابها، والصد عن الهداية، فهل نحن معتبرون؟!

الصفة السابعة: حسن التصرف، وحكمة الجواب:

من البدهي أن يتعرض الداعية لمواقف صعبة، ولإحراجات كثيرة، فالناس تتنوع مشاربهم، وتختلف مقاصدهم، وتتفاوت أساليبهم.. فمنهم من يطلب الحق ويتجاوز في الأسلوب.. ومنهم من لا يحسن السؤال والخطاب.. ومنهم من يتعنت.. ومنهم من يترصد الألفاظ.. ويُحَمِّلُها مالا تحتمل.

---

[1]- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (429/4).

ومنهم من يتعمد الإحراج، ويُبيِّتُ السوء.. لتشويه سمعة الداعي، وقذفه بالتهم، لإرباك دعوته، وإشغاله عنها، حسداً وبغياً.

وقد كان ذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكون في كل عهد، ومع كل داعية.

أمثلة مما حدث مع رسول الله من هذه المواقف:

حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ابن عمته الزبير ورجل، فكان الحكم لصالح الزبير.. فقال الرجل: أن كان ابن عمتك.[1] أي: أحكمت له، لأنه ابن عمتك.. نعوذ بالله من سوء الظن، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن شدد في الحكم، وأعرض عن التهمة.

ولما وزّع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم، قال له رجل يقال له ذو الخويصرة: يا رسول الله اعدل[2] –وفي رواية اتق الله– نعوذ بالله من النفاق.، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويلك. ومن يعد إن لم أعدل. ثم حذر النبي صلى الله عليه وسلم منه وأصحابه و لم ينتقم منه.

وشد أعرابي جبة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أثرت حاشيتها في عنقه، طالباً وفاء دينه، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء.[3] نسأل الله حسن المعاملة.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه التصرفات الخلقية العظيمة يعطي دروساً تربوية في الأخلاق لأصحابه.

لذلك يجب على الداعية أن يكون حذراً،من أن يتصرف تصرفاً يعيق دعوته،أو يتلفظ بألفاظ يستغلها المترصدون،ليجعلوا منها حديث المجالس ووسيلة للتنفير من الداعية،وهم عن سبيل الله يصدون، وهم يشعرون أو لا يشعرون.. ولا شك أن هذا يؤثر على شخصية الداعية وعطائه، ويعرقل مسيرة دعوته.

ومن القواعد في معالجة هذا الأمر:

الأولى: التريث في الإجابة، والتأني في التصرف، وعدم الاستجابة لردود الفعل.

الثانية: ضبط النفس حين الغضب، وكبح جماح الانتقام للنفس.

ويعين على ذلك:

1- رواه البخاري (2359، 2360، 2708)، ومسلم (2357).

2- رواه البخاري (3610، 4351، 6133، 6933، 7432)، ومسلم (1064).

3- رواه البخاري (5809)، ومسلم (1057).

= وهكذا يجب أن يكون الداعية حسن الجواب حكيم التصرف، فلا يجب عن سؤال لا مصلحة في الإجابة عليه، ولا يستدرج لموقف لا ينبغي أن يقفه، ولايتزلق في أسئلة الفتن، بل إن رأى مصلحة في الإجابة أجاب، وإلا صرف السائل بحكمة، وأشغله بما ينفعه عما لا ينفعه.

استشعار خطورة توقف الدعوة، لأجل هذا التصرف.. وتقديم حظ الدعوة على حظوظ النفس، واحتساب الأجر عند الله عز وجل.

الثالثة: تقدير المصالح والمفاسد، وذلك بالتفكر في مقصود السائل، والتبصر في الإجابة، والفهم العميق لمدلولها، والنظر في التصرف، وما ينتج عنه من عواقب.

الرابعة: جواز الأخذ بالمداراة والتورية حين الحاجة الملحة.

والمداراة طريقة مشروعة، لرفع الحرج، ودفع المفاسد، وهي: السكوت عن قول الحق سكوتاً مؤقتاً لأجل التغيير، لا لأجل المداهنة.

أو هي التلطف بالمخطئ دون مواجهة، وعدم مصارحته بحقيقة فعله، طلباً لمصلحة شرعية، أو دفعاً لمفسدة أكبر، أو انتظار فرصة إصلاح أفضل.[1]

والسكوت عن قول الحق لا يعني: جواز قول الباطل، أو المداهنة فيه.

والقاعدة في ذلك: **إذا كنت لا تستطيع قول الحق فلا تقل الباطل.**

والتورية شعبة من شعب المداراة.

وهي: أن يقال كلام يقصد به شيء، ويفهم منه شيء آخر، ولا يتعارض ظاهر الكلام مع مقصوده.[2] ويشترط أن لا يفهم من التورية، ما يبيح حراماً، أو يحرم حلالاً، وإنما كلام يقال لا يجلب مفسدة، بل يدفع مضرة.

أمثلة من أجوبة النبي صلى الله عليه وسلم الحكيمة، وتصرفاته الحسنة.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة عظيمة، في حسن التصرف، وحكمة الجواب.

فقد قال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ((متى الساعة يا رسول الله؟ قال: "ما أعددت لها؟"، قال: ما أعددت لها من كثير صلاة، ولا صوم، ولا صدقة، ولكني احب الله ورسوله، قال: "أنت مع من أحببت"))[3].

فلو قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أعلم، لربما وقع في نفس الأعرابي ما وقع، ولربما قال ما قال.. لقرب عهده بالجاهلية، أو لجهله.

فكان من الحكمة صرف الأعرابي عن سؤاله الذي لا ينفعه جوابه، إلى جواب ينفعه في دينه وآخرته، وينفع الأمة من بعده، فقال له عليه الصلاة والسلام: ((وما أعددت لها)).

1- راجع باب المداراة والمداهنة في فصل المنهج من هذا البحث.

2- انظر مختار الصحاح (178/1)، والتعريفات للجرجاني ص71.

3- البخاري (3688، 6167، 6171، 7153)، مسلم (2639).

فانصرف الأعرابي عن سؤاله.. وانشغل بما ينفعه عما لا ينفعه. فصلى الله وسلم عليه ما أحسنه من معلم.

ولما بال الأعرابي في المسجد، وهمّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم به، ومنعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الأعرابي: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، قال له صلى الله عليه وسلم: ((لقد تحجرت واسعاً))[1] بدل أن يقول له: ((لقد قلت باطلاً)). فما أعظمه صلى الله عليه وسلم من مربٍّ!؟

ولما طالبه أحدهم بقضاء الدين فأغلظ، فَهَمَّ به أصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً)) ثم قال: ((أعطوه سناً مثل سنه، قالوا: يا رسول الله لا نجد إلا أمثل من سنة، فقال: أعطوه.. فإن من خيركم أحسنكم قضاء)).[2] فصلى الله عليه وسلم ما أطيبه عشرة.

ولو أردنا أن نتتبع تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم وأجوبته، لطال بنا المقام عن المقصود.

ومن أجمل ما يروى في حسن الجواب عن بعض الحكماء: أن خليفة رأى في المنام: أن أسنانه وأضراسه كلها سقطت، فسأل معبراً، فقال له: يا أمير المؤمنين: كل أهلك وأقربائك يموتون قبلك. فحزن الخليفة حزناً شديداً.. وسأل معبراً آخر: فقال: يا أمير المؤمنين هون عليك... إن تأويل الرؤيا: ((أنك أطول أهلك عمراً))، فسر الخليفة، وفرج عنه.

والمتأمل للجوابين: يجدهما بمعنى واحد، غير أن الأول: لم يكن حكيماً في جوابه، مع صوابه.. والثاني: كان حكيماً في جوابه، وانظر – يا رعاك الله- الأثر.

وبهذا يتبين: أن المقصود من هذا الباب: حكمة الجواب، والتلطف بالخطاب، وليس المقصود أن يقول الباطل، ويداهن فيه، ولكن يمكن للداعية بشيء من التأني والروية، والتفكير بعواقب الأمور، أن يقول الحق، بقالب مقبول، وعبارة مسموعة، وعلى الله قصد السبيل.

---

[1]- رواه أحمد (239/2)، وأبو داود(380)، والترمذي (147)، ((والحديث عند البخاري (6010) دون قصة البول)).

[2]- رواه البخاري (2306)، ومسلم (1601).

المرسل إليه: المدعوون وأحوالهم

الأول: أهمية مراعاة المدعوين وأحوالهم:

المدعوون عنصر من عناصر الدعوة إلى الله عز وجل.. الأساس ويجب الاهتمام بهم، ودراسة حالاتهم، والتصرف تجاهها بما يناسبها، مما يقرره الشرع الحنيف، إذ ما شرعت الدعوة إلا لأجلهم، وما أرسلت الرسل إلا لدعوتهم.

فمن العبث الدعوي: أن يلقى الكلام على عواهنه، بدعوى التبليغ -مجرد التبليغ- دون النظر إلى حال المدعوين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -مجرد الأمر والنهي- دون معرفة واقعهم.

ومن الخطأ الدعوي الواضح: ما يفعله بعض الدعاة، من عدم مراعاة أحوال المدعوين، فتراه يحفظ خطبة جمعة، أو موعظة، أو يحضر محاضرة، ثم يلقيها في كل زمان ومكان، على كل المدعوين، رغم اختلاف مستوياتهم الإيمانية، والعلمية، والعقلية.

وربما كانت المحاضرة منقولة من قرون.. فهو لا يغير في ألفاظها، ولا يبدل في أسلوبها.. سواء كان المدعوون مثقفين أو عوامًا.. جهلاءَ أو علماءَ، وسواء كان لها مناسبة أو لم يكن لها مناسبة.

ومما لا شك فيه: أن المدعوين ليسوا في الاستجابة سواء، ولا في الفهم، ولا في العلم، ولا في التدين.. فمخاطبتهم على حد سواء، ليس من الحكمة في شيء.

فقد يكون المدعوون في زمن عمت به البلوى ببعض المخالفات الشرعية، التي أصبحت عندهم كالعادة وهم لا يعلمون، كما هو الحال في قضية الحجاب، وبعض المعاملات المحرمة التي تفشت في بعض البلاد، فمخاطبة هؤلاء لا تكون كمخاطبة من عرف حرمة ذلك، وفعله متعمداً.

ولقد وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب طبقات الناس كلها، كلاً حسب دينه، وحسب علمه، وحسب استجابته، وحسب إمكانه.

وحسبك أدلة على هذا قوله تعالى: ﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: 286]

وسعها: العقلي، ووسعها: العلمي، ووسعها... إلخ.

وسنتعرض في هذا الفصل إلى معظم أحوال المدعوين المتنوعة، وإلى شيء من الحكمة في مراعاتها، وما في الكتاب والسنة من أمثلة على ذلك.

ولما هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي بال في المسجد قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاله وهو حاقن يبول، فأمرهم أن يتركوه حتى ينتهي من بوله، ذلك لأن حاله -وقتئذ- وهو

يبول لا يستطيع معها سماع نصح، ولما فرغ الرجل من بوله علمه الرسول صلى الله عليه وسلم ما علمه.[1] وكل ذلك تقديراً لحال المدعو.

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم القاضي أن يقضي وهو غضبان[2]، وذلك لما يكون عليه من الحال النفسية التي تدفعه إلى عدم فهم القضية والتسرع في الحكم.

الثاني: مراعاة طباع المدعوين الشخصية.

إنَّ مما لا شك فيه، أن الله فطر الناس على صفات متفاوتة، وسجايا متنوعة، وإدراكات متباينة.

فمنهم صاحب الحس المرهف، والطبع الرقيق، الذي يتأثر بالعاطفة، ويستجيب للموعظة..

ومنهم العقلاني، الذي يناسبه الطرح العقلي، والاستدلالات الرياضية..

ومنهم الذي يؤخذ بالترغيب.. ومنهم الذي يتأثر بالترهيب.. ومنهم المسالم المنصت.. ومنهم المجادل العنيد.. ومنهم المتعالم.. ومنهم المتجاهل.. ومنهم القوي.. ومنهم الضعيف.

وقد يكون لبعضهم ظروف مؤقتة، تمنعه من الإدراك، وتحول دونه ودون الاستجابة، كمصيبة مفاجئة، أو خسارة فادحة، أو حالة نفسية معينة.

ومما لا شك فيه أن مقتضى الحكمة، ونفع الخطاب. أن تُراعى هذه الطباع، وأن يهتم بخطاب كل صنف بما يناسبه، في إطار الشرع الحنيف.

والناظر في أسلوب القرآن الكريم: يجد تنوعاً عجيباً في الأسلوب، وتفاوتاً بديعاً في الطرح، ومعالجة ناجحة لكل أصناف البشرية.

قال سيد في الظلال: ((كان هذا القرآن يواجه به النفوس في مكة، ويروضها حتى تسلس قيادها، راغبة مختارة، ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة، تنوعاً عجيباً.. تارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر، من الدلائل الموحية، والمؤثرات الجارفة.. وتارة يواجهها، بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس، فلا يطيق وقعها، ولا يصبر على لذعها! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة، والمسارة الودودة، التي تهولها المشاعر وتأنس لها القلوب..! وتارة يواجهها بالهول المرعب، والصرخة المفزعة، التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب..! وتارة يواجهها بالحقيقة في بساطة ونصاعة، لا تدع مجالاً للتلفت عنها، ولا الجدل فيها.. وتارة يواجهها بالرجاء الصبوح، والأمل الندي، يهتف

---

[1]- انظر البخاري (220، 6128).

[2]- انظر البخاري (7158)، ومسلم (1717).

لها ويناجيها.. وتارة يتخلل مساربها ودروبها ومنحنياتها، فيلقي عليها الأضواء التي تكشفها لذاتها، فترى ما يجري في داخلها رأي العين، وتخجل من بعضه، وتكره بعضه، وتتيقظ لحركاتها، وانفعالاتها التي كانت غافلة عنها!.. ومئات من اللمسات، ومئات من اللفتات، ومئات من الهتافات، ومئات من المؤثرات.. يطلع عليها قارئ القرآن، وهو يتبع تلك المعركة الطويلة، وذلك العلاج البطيء، ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العصيّة العنيدة)).[1]

وهكذا ينبغي أن يكون أسلوب الداعية ؛ ينبغي أن يكون متنوعاً، يتناسب وكل موقف؟ ويتوافق وكل نفس وما فيها، من قدرات خَلْقية، وصفات مكتسبة. غير مغفل لحال المدعو، ولا لصفاته الفطرية، ومزاياه الشخصية.

ولولا خشية الإطالة، لسُرد الكثير من الشواهد.. ولا يفوتنا أن نذكر أمثلة للتذكير.

انظر كيف تتغلغل هذه الآيات في النفس البشرية، لتوحي إليها قدرة بارئها في معرفة ما يجري داخلها.

وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾. [الأنفال: 24]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: 16]

وانظر كيف تُشعر الآيات التالية هيمنة الله على ملكوته بالعلم والقدرة والسمع والبصر، و بمراقبة الله للعبد في كل حين، وفي كل قول وفعل:

﴿

وتعطينا السنة صوراً واقعية وتصرفات عملية في مخاطبة المدعوين، بما يتناسب مع طباعهم الفطرية وأحوالهم الخاصة.

ومن ذلك: لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بأبي ذر من ضعف نصحه أن لا يقترب من الإمارة، وقال: ((يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة...)) [2] الحديث.

ولما رأى من خالد بن الوليد ما رأى من القوة، والمكر المحمود، جعله قائداً مقدماً في ذلك على من هم أفضل منه كأبي بكر وعمر وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين .

---

[1]- في ظلال القرآن (6/3692- 3693).

[2]- رواه مسلم (1825).

ولما أخطأ خالد رضي الله عليه في قتل بني خزيمة، قال عليه الصلاة والسلام على الملأ ((اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد))[1] ولم يعزله، مع فعله هذا، لما رأى فيه من القوة على الأعداء، الأمر الذي يحتمل منه مثل هذا الخطأ.

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبي بكر من القوة الإيمانية، والعدل بين الناس، والقدرة القيادية، مهّد له بالخلافة، وقدمه لها.

فقال عليه الصلاة والسلام: ((يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر)).[2]

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزحام على تقبيل الحجر قال لعمر: ((يا عمر، إنك رجل قوي، لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله وهلل وكبر)).[3]

وفي الوقت الذي أمر به زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية[4]، لم يستطع هو عليه الصلاة والسلام بنفسه، أن يعلم أحد الصحابة الفاتحة، فأمره أن يقول بدلها ((سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله)).[5]

فأي مراعاة لأحوال المدعوين بعد هذا.. رجل يؤمر بتعلم لغة غير لغته، وذلك لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفظه وفطنته، ورجل يأمره بالتسبيح بدل الفاتحة، لما رأى من ضعف ذاكرته.. إنها مراعاة لطباع المدعوين الشخصية، التي فقدها بعض الدعاة والمربين.

وهكذا ينبغي على الداعية أن يكون فطناً لطبيعة المدعو، مدركاً لما ينفعه في تلك الصفة التي يتصف بها، فيؤخر النصيحة، ويرجيء الأمر، ويعجل البيان، ويمسك عن الجواب، كل ذلك و ما يتناسب وطباع المدعو الشخصية، ومزاياه الفطرية في إطار الحكمة والمشروع.

---

[1]- رواه البخاري (4339، 7189).

[2]- رواه البخاري (5666، 7217)، مسلم (2387).

[3]- رواه أحمد (28/1)، واللفظ له، والبيهقي في السنن الكبرى (80/5).

[4]- رواه أحمد (182/5)، والطبراني في الكبير (155/5، 156)، والحاكم (422/3) وقال: صحيح إن كان ثابت بن عبيد سمعه من زيد بن ثابت و لم يخرجاه.

[5]- رواه أحمد (353/4)، وأبو داود (832)، والنسائي (143/2)، والحاكم (241/1) وصححه ووافقه الذهبي.

الثالث: مراعاة أحوال المدعوين العلمية:

من الحكمة بمكان: أن يدرك الداعية مستوى المدعوين العلمية، ومخاطبتهم بما يناسبهم، وبما يحتاجون إليه.. فلا يخاطبهم بما يَمَلُّون من سماعه، ولا بما لا يحتاجون إليه.

فليس من الحكمة في شيء: أن يدعى طلبة علم إلى علم يعلمونه ويدركونه، كأن يشرح لهم حديث جبريل في أركان الإيمان والإسلام، أو يدعوهم إلى التوحيد، وربما كان المدعوون أعلم من المدعو في ذلك.

فقد حضرت مجلساً كثر فيه أهل العلم، فانبرى فيهم رجل، فكلمهم في التوحيد، وأهمية التوحيد، وأطال الخطاب، حتى تقطعت أكباد الحضور، من ضياع الوقت، ومن التكرار، وكادوا يسكتونه، لولا حياؤهم منه.

كما أنه ليس من الحكمة: أن يكلم الداعية جمهور المسلمين في تفاصيل علمية، كعلم أصول الفقه، أو مصطلح الحديث، أو أنواع كلام الله عند الفرق، أو في خلافات العلماء، أو في دقائق لغوية، أو طرح شبه الفرق الضالة.

فإن لهذه المسائل مقاماً غير مقام الدعوة، وغير مقام جمهور الناس، وما يحصل في بعض القنوات من دروس تخصصيّة، ليس هذا محله، وليس هو من باب الدعوة في شيء، فإن هذا مقامه طلبة العلم في الجامعة والمسجد، فإن معظم مشاهدي الفضائيات من العوام الذين سينصرفون عن هذا الدرس، ولا يستفيد منه إلا قلة قليلة من الناس، إلا إذا أشير إلى أنه هذا درس مدرسي لطلاب المرحلة الفلانية فقط.

والداعية الحكيم، هو الذي يكلم المدعوين بما ينفعهم، مما يناسب مستواهم العلمي، وعلامة الحكمة: في ذلك أن ينصت معظم المدعويين، وأن ينتفعوا بما يسمعون.

فإذا كان الناس لا يعرفون أحكام الأركان الخمس، فهل من الحكمة أن يجول الداعية بالمدعوين في تفصيلات فقهية، لا يفهمونها، وإن فهموها فلا تنفعهم في حياتهم العامة.

ومما لا يخفى؛ أن للجاهل في الشريعة حكماً، وللعالم بالأمر وهو يخالفه حكماً.

فهذا الذي بال في المسجد، وكشف عورته فيه، و قام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقعوا فيه.. لا شك أن تصرفهم هذا ليس من الحكمة، لأنهم لم يقدروا حالته من جهتين: حال كونه جاهلاً، وحاله وقتئذ وهو حاقن، يريد أن يبول.. ولكن خير الدعاة وسيد الحكماء عليه الصلاة والسلام، أدرك حاله: أنه جاهل، وأدرك أنه -ساعتئذ- في حال خاصة، أما الجهل: فدواؤه التعليم..

وأما الحالة الخاصة -التي كان عليها-: فلا حل لها سوى تركه يفرغ من بوله، ولو كان في المسجد، ولو كان كاشف العورة، لأن مفسدة قطعه من بوله أعظم من مفسدة ما يفعل. فضلاً عن أنه لن يستوعب ما سيقال له.

لذلك بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعالجة حاله، ونهى الصحابة أن يتعرضوا له، بل منعهم من أن يقطعوا عليه بوله، فقال: ((لا تزرموه)).

ثم ما إن انتهت حاله هذه، إلا وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعالجة حاله الأصلية، وهي الجهل، فبدأ يعلمه بكل رفق، وبكل سهولة، حتى قال الأعرابي قولته المشهورة، التي أضحكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ((اللهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحداً))[1].

وتكلم معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه في الصلاة، وكان لا يعلم أن الكلام قد حرم فيها. فما إن انتهت الصلاة حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: ((إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس)).[2]

فقال معاوية رضي الله عنه وهو يصف ما خرج به من انطباع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني.**[3]

ومع هذا الرفق بمن لا يعلم، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب إذا انتهكت حرمات الله ممن يعلم.

فقد طلق ابن عمر زوجته، وهي حائض، فذكر عمر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتغيَّظ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: ((ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة كما أمر الله)).[4]

حاجة دعاتنا إلى هذا الفقه:

ألقى أحد العلماء الفضلاء في إحدى الدول الأوروبية محاضرة في صفات الله، فكان مما قال: (إن أهل العلم اختلفوا في عدد أصابع الله، هل هي خمس أصابع أو ست..؟ وأن رواية الدارقطني فيها: كذا وكذا، ولكن العلة: كذا وكذا).

---

[1]- تقدم ص (112).

[2]- رواه مسلم (537).

[3]- المصدر السابق.

[4]- رواه البخاري (4908)، ومسلم (1471).

والناس الحضور من الجهل بمكان، لا يعرفون أركان الإسلام من أركان الإيمان، ولا يمكنهم أن يستوعبوا ما يقال، بل ربما دفعهم هذا إلى التشكيك، واتهام الداعية بالتجسيم، فضلاً عما عليه معظمهم من الذنوب والفسوق.

وأطال وأسهب.. وبدأ الناس يتلفتون.. ماذا يقول الداعية؟!؟!.. وبدأت إدارة المسجد تفكر بمخرج من هذه المشكلة، فلا الموضوع يناسبهم، ولا المسألة تفيدهم، إن لم تك تضيعهم أو تنفرهم، وربما أحدث فتنة كبيرة بينهم

ثم تدخَّل أحد الدعاة، فأنقذ الموقف.. وتكلم عن صفات الله بما يتناسب ووضع المدعوين مما هم فيه من الذنوب، وأثر الإيمان بهذه الصفات في الرجوع إلى الله. [1]

وهكذا كان خطاب الداعية الثاني، بما يناسب مداركهم العقلية، أو مستوياتهم العلمية، وحالاتهم الواقعية، فهم لا يدركون مصطلح الحديث، ولا يناسبهم الكلام في الخلافات الفرعية الدقيقة.. وإنما الذي يناسبهم ويحتاجون إليه هو التوبة، والرجوع إلى الله تعالى، وهم بحاجة إلى معرفة أركان دينهم، قبل حاجتهم إلى شيء آخر.

الرابع: مراعاة أحوال المدعوين الإيمانية:

ما قيل في باب مراعاة أحوال المدعوين العلمية، يقال كذلك في باب مراعاة أحوال المدعوين الإيمانية، والبابان فيهما نوع من الاشتراك والتداخل، وفي هذا المبحث المطالب التالية:

فمن الناس: من ليس فيه ذرة من إيمان بالله، ولا في ألوهيته.. ومنهم الذين ملئت قلوبهم إيماناً.. وبينهما درجات ودركات لا يعلمها إلا الله.

فمن العبث: أن يخاطب الجميع بأسلوب واحد، ومستوى علمي واحد.. وأحكام وحجج واحدة، دون مراعاة أحوالهم الإيمانية.

---

[1] – ولولا فضل الله أن قدر حضور أحد الدعاة، الذي أنقذ الله به الموقف لكانت فتنة عظيمة.. ونظراً لأهمية هذه المواقف، نذكر كيف استطاع الداعية الثاني، أن يخرج الجميع من هذا المأزق بالتدرج من فقرة إلى فقرة.. دون أن يشعرهم، ودون أن يخدش شعور المحاضر.. وقام متدخلاً لصالح المحاضر، مدعياً المداخلة والمشاركة في ذلك، فمما قال: لا شك أن ما يدعو إليه المحاضر هو الحق، من إثبات صفات الله تعالى، وكيف لا نثبت أن الله كريم رحيم بعباده..؟! وكيف لا نثبت أن الله غفور تواب على عباده...؟! ونحن مذنبون نحتاج إلى أثر هذه الصفات من الله.. ثم فصل في أثر هذه الصفات في التوبة، وغفران الذنوب، والإقبال على الله، وتكلم عن صفة السمع والبصر لله.. وأنه يرانا.. ويسمعنا.. إلخ **﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيرا﴾** [الإسراء: 17] ففرحت إدارة المسجد، واستفاد المدعوون، ونسوا ما كان من المحاضر الأول، وخرج المحاضر الأول بماء الوجه، إذ لم يخدش شعوره بشيء، فالله نسأله الحكمة والقبول.

ولما كان لكل فئة خطاب يناسبها، وأسلوب وحجج تتوافق ومستوى إيمانها، كان لابد للداعية من معرفة حالهم الإيمانية قبل مخاطبتهم.

فخطاب الملحدين يختلف تماماً عن خطاب المؤمنين المسَلِّمين، لأوامر الله عز وجل، ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وغير المسلمين يختلفون في معتقداتهم.. فمنهم الدهريون الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومنهم الذين يؤمنون بوجود الخالق.. مع انحرافات فكرية، وضلالات عقدية..

وكذلك المؤمنون بالله، يتفاوتون من حيث شركهم، وعداوتهم للإسلام.

فلا يجوز للداعية أن يكون غافلاً عن أحوال المدعوين الإيمانية هذه، فيضع -وقتئذ- الأمور في غير محلها.

فليس من الحكمة: أن يتكلم مع الدهرين عن طاعة الله، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، والتمسك بالدين، ويحتج عليهم بالآيات والأحاديث، وهم لا يؤمنون برب، ولا يقرون بدين.

وليس من الشرع: أن يتكلم مع أهل الكتاب عن أهمية الصلاة، أو وجوب الحجاب، أو حرمة الاختلاط، أو أحكام الطلاق، وهي من شعب الإيمان، وهم لا يسلمون بالأصل.

تقسيم الناس في الإيمان إلى الأصناف التالية:

الأول: الدهريون: هم الذين لا يؤمنون برب، ولا رسول، ولا كتاب.

الصنف الثاني: المشركون: هم الذين ما زالوا يعبدون الأصنام، على اختلاف مشاربهم، حتى ساعتنا هذه.[1]

الصنف الثالث: أهل الكتاب: هم الذين يؤمنون بالله خالقاً، وبكثير من الرسل، ولكنهم يشركون بهم، أو بغيرهم، ولا يؤمنون برسالة الإسلام.

الصنف الرابع: الباطنيون: هم الذين انتسبوا إلى الإسلام، والإسلام منهم براء، وغالبهم من الحاقدين على الإسلام، ادعوا الانتساب إليه ليكيدوا به.[2]

1- وقد أخطأ من أنكر وجودهم اليوم، بل هم كثيرون، وربما كانوا الديانة الثانية أو الثالثة في العالم، ويتواجد معظمهم في جنوب شرق آسية وأوسط أفريقية، ويعدون بمئات الملايين، فمنهم الهندوسية والبوذية والسيخية وَ..وَ ومازالوا يعكفون على أصنامهم المختلفة، فمنهم من يعبد الرجال. ومنهم من يعبد الحيوانات، كالبقرة والأسد والثعابين... إلخ.

2- فمنهم من يدعي وجود نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم يدعي نسخ بعض الأركان في الإسلام، ومنهم الذين يدعون تحريف القرآن، ومنهم من يكفر معظم الصحابة،... ولكل فرقة أتباع جاهلون، لا يعلمون الحقيقة.

الصنف الخامس: المنافقون: هم الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، والفارق بينهم وبين الباطنيين أنهم لا يظهرون ما يكفرهم.. والباطنيون: يتبنوّن أموراً مكفرة، يدعون إليها، وهم ينتسبون للإسلام.

الصنف السادس: الضالون: هم المسلمون الذين رضوا بالله رباً، وبالقرآن كتاباً من رب العالمين، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، ولكنهم لم يفهموا الإسلام على حقيقته، فانحرفوا انحرافات مختلفة ومتفاوتة.

فمنهم من وقع في الشرك.. وآخرون سقطوا في ضلال وابتداع وخرافات.. وفي بعضهم ضعف شديد في الإيمان، وإعراض عريض عن الإتباع.. وكثير منهم أصحاب أهواء، وكثير منهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.. كالخوارج، والمعتزلة وغيرهم من أمثالهم، ويدخل في هذا الصنف المتحررون.[1]

الصنف السابع: العصاة: هم المسلمون الذين غلب عليهم الفسق، وطغت عليهم المعصية، وهيمنت عليهم شهواتهم وأهواؤهم، حتى أصبحت تلازمهم، فلا يهتمون بدين، ولا يفكرون بتوبة، وهؤلاء فيهم ضعف في الإيمان شديد، غير أنه ليس فيهم شرك، ولا انحراف في الفكر أو الابتداع، ولكنهم يقرون بذنوبهم، ولايستحلونها.

الصنف الثامن: المقتصدون: هم الذين يأتون بالواجبات، ويجتنبون المحرمات، ولكنهم لا يسارعون في الخيرات، وإذا ما وقعوا في بعض الذنوب لم يصروا عليها، ويسارعون إلى التوبة، وهؤلاء لم يكتمل الإيمان عندهم، فهم متفاوتون فيه حسب أعمالهم.

الصنف التاسع: الأخيار: هم الذين أتوا بالواجبات على وجهها، وبمعظم النوافل، واجتنبوا محارم الله أو تابوا منها توبة نصوحاً، ياتون يوم القيامة ليس عليهم شيء.

ولهذه الأصناف تفصيلات كثيرة، وأحوال متنوعة، وأحكام مختلفة، ولكل أدلة شرعية، وشواهد واقعية، ليس هاهنا محل تفصيل لها.

المقصود من هذا التقسيم، أن يكون الداعية على بينة من أصناف الناس، وأحوالهم الإيمانية، ومواقفهم الاعتقادية، وأن يختار لكل صنف خطابه، وما يناسب اعتقاده، ومستوى إيمانه، فيخاطب الدهرين:

---

[1]- وهم فرقة حديثة: تسمى تارة بالليبرالية أو العلمانية أو اللالكانية... وهم الذين يريدون أن يخضعوا الإسلام للواقع وللتوجيهات السياسية العالمية منها والمحلية بدل أن يخضعوا للإسلام، وبعضهم يحاول التوفيق بينهما ولهم مبادئ شتى، وتخبطات كثيرة ينقضون بها بعض أصول الإسلام، ولهم تفصيلات وأحكام ليس هاهنا محل تفصيل.

في إثبات وجود الخالق عز وجل، ويقيم البراهين على ذلك..، ويخاطب أهل الكتاب في صحة رسالة الإسلام، وبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، ووجوب الإيمان بالرسل جميعاً..

وأما الضالون؛ فيخاطبون بتصحيح المرجعية، ووجوب الاتباع، واجتناب الهوى، وقواعد معرفة الحق، ومعنى الدليل.

ويخاطب المسلم العاصي بما يزيد من إيمانه، وبما يحببه بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويخاطب بمقتضى هذا الإيمان، وهذه المحبة.. ويرغب في ذلك ويرهب، ويدعى بطرق زيادة الإيمان.. والتنبه إلى سبل الشيطان.

وهكذا، لكل صنف طريقته، ولكل مستوى مقاله.[1]

عند تتبع أساليب القرآن في خطاب الناس؛ نجد القرآن الكريم قد خاطب هذه الأصناف كلها، كلاً حسب إيمانه، وكلاً بما يناسب تفكيره ومعتقده.

فخاطب الدهريين: بإثبات وجود الخالق، فقال تعالى: ﴿ **أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** ﴾. [الطور: 35]

وقال تعالى: ﴿ **هَـــذَا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ** ﴾. [لقمان: 11]

وقال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ثُمّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ** ﴾ [الروم: 20]

وحاج إبراهيمُ عليه السلام الدهريَّ بقول: ﴿ **فَإِنّ اللّهَ يَأْتِي بِالشّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ** ﴾. [البقرة: 258]

وخاطب القرآن المشركين بما يناسبهم في عقائدهم. فقال تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مّنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنّ اللّهُ فَأَنّىَ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [العنكبوت: 61]

لأنهم كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبية.. ويشركون في الألوهية فألزمهم الله بمقتضى الربوبية أن لا يشرك به.. لأن العبادة تصرف لخالق هذا الكون والمتصرف فيه، ولا تصرف لغيره من المخلوقات كائناً ما كانت.

---

[1]- ولولا خشية الإطالة، لفصلت في هذا لأهميته، ولعل الله ييسر وقتاً لذلك.

وقال سبحانه: ﴿ إِنّ الّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأعراف: 194]

وقال سبحانه: ﴿ وَالّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل: 20، 21]

وقال: ﴿ وَمَنْ أَضَلّ مِمّن يَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَن لاّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف: 5]

وخاطب أهل الكتاب بما يناسبهم، ومعتقداتهم، وما يقرون به من توحيد الربوبية، وإيمانهم ببعض الرسل، والكتب، فقال لهم سبحانه: ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىَ كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 64]

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقّ..﴾. الآية [المائدة: 77]

وقال سبحانه: ﴿ مّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرّسُلُ وَأُمّهُ صِدّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيّنُ لَهُمُ الاَيَاتِ ثُمّ انْظُرْ أَنّىَ يُؤْفَكُونَ ﴾. [المائدة: 75]

وقال: ﴿ قُلْ يَـأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىَ شَيْءٍ حَتّىَ تُقِيمُواْ التّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مّن رّبّكُمْ..﴾. الآية [المائدة: 68]

فانظر كيف أمرهم باتباع ما يعتقدون صحته، و لم يأمرهم مباشرة في هذه الآية باتباع القرآن، لأن اتباعهم للتوراة الصحيح سيجعلهم يؤمنون بالقرآن.

وخاطب العصاة المسلمين بما يتناسب وإيمانهم، وتسليمهم لأمر ربهم، فتارة يخاطبهم بما في قلوبهم من إيمان فيقول: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلّذِينَ آمَنُوَاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقّ ﴾ الآية. [الحديد: 16]

ويقول: ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ ﴾. الآية [الطلاق: 2]

وتارة يخاطبهم بالترهيب كقوله تعالى: ﴿ يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرّبَا إِن كُنتُمْ مّؤْمِنِينَ * فَإِن لّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ... ﴾ الآية. [البقرة: 278]

وقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُمْ مّؤْمِنِينَ﴾. [النور: 17]

وقوله تعالى: ﴿ فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مّن رّبّهِ فَانْتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾. [البقرة: 275]

ولما حرم الله الخمر، ختم ذلك بقوله تعالى ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مّنتَهُونَ ﴾. [المائدة: 91]

وخاطبهم بالترغيب بقوله سبحانه: ﴿ قُلْ يَعِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىَ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رّحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ ﴾ [الزمر:53]

وبقوله: ﴿ يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ تُوبُوَاْ إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نّصُوحاً عَسَىَ رَبّكُمْ أَن يُكَفّرَ عَنكُمْ سَيّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾. [التحريم: 8]

وتارة يجمع سبحانه بين الترغيب والترهيب في نص واحد.

كما في قوله ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً**﴾. [الفرقان: 68-70]

وكذلك في قوله تعالى: ﴿**نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم**﴾. [الحجر: 49، 50]

ولم تخرج السنة عن هذه المنهجية القرآنية العظيمة، فقد خاطبت كل صنف بما يناسب إيمانه، ولو أمعنا النظر في السنة لجمْعِ مثلِ هذا لعجزنا، ولا بأس بذكر قليل من ذلك على سبيل التذكير والتنبيه.

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب أهل الكتاب بغير ما كان يخاطب به كفار قريش؟؟.

فخاطب اليهود بوجوب التزامهم التوراة الصحيحة، وعدم التحريف فيها، فلو أنهم التزموها لآمنوا.

ومن ذلك: لما جاءه اليهود بزان منهم، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم)) [1].

وخاطب وفد نجران في إبراهيم انه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً.

---

[1]- رواه مسلم (1700)

وكان قد كتب لهم ((أما بعد: فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد...)). [1]

فانظر كيف خاطبهم بتوحيد الألوهية مباشرة، لأنهم مُقرّون بتوحيد الربوبية.

وكان يخاطب من عصى من أصحابه بالإيمان، وبالتذكير بمحبة الرحمن.

فعن عبد الله بن مغفل أن رجلاً لقي امرأة بغياً في الجاهلية، فجعل يلاعبها حتى بسط يده إليها، فقالت المرأة: مه، فإن الله عز وجل قد ذهب بالشرك و قال عفان مرة: ذهب بالجاهلية، وجاءنا بالإسلام، فولى الرجل، فأصاب وجهه الحائط، فشجه، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: ((أنت عبد أراد الله بك خيراً، إذا أراد الله عز وجل بعبد خيراً عجل له عقوبة ذنبه، وإذا أراد بعبد شراً أمسك عليه بذنبه، حتى يوافي به يوم القيامة كأنه عَيْر)). [2]

وبين يدينا شاهد في مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم من في قلبه إيمان، ومن خوي قلبه من الإيمان في خطاب النبي ، بين مادية سراقة، وإيمان عمر:

لما تبع سراقةُ بن مالك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ساعة الهجرة إلى المدينة وأدركه...

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كأني بك قد لبست سواري كسرى)). [3]

ودخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أثّرت الحصير في جنبه فبكى عمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما يبكيك؟)) فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله!!!

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة)). [4]

فجواب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأول لسراقة يجده يختلف اختلافاً كبيراً عن جوابه لعمر.. فالأول كان وعداً بالدنيا.. والآخر وعداً بالآخرة.. فلماذا اختلف الخطاب؟! ولماذا لم يقل لسراقة ستسلم وستكون لك الجنة... ولماذا لم يقل لعمر ستكون أميراً عظيماً، وسلطاناً مهيباً، وستملك ما تحت قدم قيصر وكسرى.

ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في دعوته وإجاباته مستحضراً حال المدعو الإيمانية...

---

[1]- السيرة لابن هشام (2/215-225) البداية والنهاية لابن كثير (5/52)، زاد المعاد لابن القيم (3/629) الطبقات لابن سعد (1/357).

[2]- رواه أحمد (4/87)، وابن حبان في صحيحه (2911)، والحاكم (1/349 و 4/376-377) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

[3]- أورده ابن حجر في الإصابة (3/41)، والبيهقي في السنن الكبرى (6/357، 358).

[4]- رواه البخاري (4913)، ومسلم (1479).

فأما سراقة فلم يخرج لاحقاً رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا للمال، ونفسيته نفسية غير إيمانية، فهو لا يقيم وقتئذ للإيمان والجنة وزناً، فلا يتناسب أن يقال له: ستكون مؤمناً، وستدخل الجنة، لأن نفسيته يومئذ كانت نفسية دنيوية، وقصده من اتباع النبي كان قصداً مادياً، فناسب أن يعده الرسول صلى الله عليه وسلم بالمادة (سواري كسرى) التي هي مقصده الأول وقتئذ.

وأما عمر رضي الله عنه فنفسيته نفسية إيمانية، لا تقيم للدنيا وزناً، أمام رضا الله تعالى وجنته، فناسب أن يخاطب نفس عمر بما يناسبها، فقال له: ((أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة)).

كما يصلح هذا شاهداً قوياً لما سبق ذكره في باب مراعاة أحوال المدعوين الشخصية والنفسية.

كما يدخل في هذا الباب المسلمون الحديثو عهد بالجاهلية، إذ لا يكون خطابهم كخطاب المؤمنين السابقين بالإيمان، أو الذين ولدوا في الإسلام، كما لا يكون خطاب الصغار كخطاب الكبار.

ذلك لأن الإيمان والعلم لا يكونان عند حديثي العهد، كما يكونان عند المؤمنين السابقين بالإيمان.

فمن ذلك، ما وقع من الأحداث في أول قيام الإسلام في المدينة، فقد قارف ماعز رضي الله عنه، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معترفاً بذنبه، وكان الإسلام وقتئذ كله حديث عهد بالمدينة، فراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرض عنه.. رغم مصارحة ماعز رضي الله عنه بفعله[1]. كل ذلك تقديراً للظروف العامة التي يمر بها الإسلام، والظروف الإيمانية التي يمر بها المسلم الحديث العهد وما يكون منه من الذنوب.

مراعاة أحوال المدعوين النفسية، وظروفهم الخاصة.

من أفضل ما يتحلى به الداعية، إدراك ما عليه المدعوون من حالة نفسية خاصة، أو ظرف طارئ، وما يكون عادة بينهم من التفاوت في المنازل.

فإذا كان ثمة زلزال، أو حريق.. وحصل هلع، ووقع هرع، وتكشفت النساء، واختلطن بالرجال، فليس من الشرع أن يعاب عليهن، وهن لم يقصدن ذلك، أو يقف الداعية- وقتئذ- ليعظهن في حلال وحرام، والأمر فيه موت، وشغل عما هو فيه.

أو كان المسلمون في بلد تحت الاضطهاد، كما كان الأمر في عهد الحكم الشيوعي، فعليه أن يقدر ظروفهم، وأن لا يحملهم مالا يطيقون.

وقد عذر الله الذين لا يستطيعون الهجرة إلى ديار الإسلام نظراً لظروفهم الخاصة.

1_

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾. [النساء: 97-98]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ ﴾ [الأنفال: 72]

فكل هذه الأحكام تقديراً لظروفهم الخاصة.

ففي صحيح البخاري أن أبا ذر لما أسلم أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع إلى قومه فقال له: ((ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري)).[1]

أي: حتى انتصر على عدوي، وأتمكن من أرضي.

وذلك تقديراً لظرفه الخاص، إذ لم يكن أبو ذر من أهل مكة، و لم يكن له ناصر منهم.

كما لا يجوز للداعية، إغفال منازل الناس، ومقاماتهم الخاصة، وعليه مراعاتها، وفي الأثر عن عائشة رضي الله عنها: ((أنزلوا الناس منازلهم))[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود))[3].

قال الإمام الشافعي: وذوو الهيئات الذين يقالون في عثراتهم: هم الذين ليسوا يعرفون بالشر، فيزل أحدهم الزلة)).[4]

ولما زار عدي بن حاتم الطائي رسول الله أكرمه، وقدم له وسادة.[5]

والمقصود أن من كان وجيهاً، أو سلطانا، فلا يستحسن مناصحته أمام الناس، بل لابد أن يكون على انفراد، وبأسلوب لا يدفعه إلى الاعتزاز بسلطته، أو استخدامها إذا لم ترق له الموعظة.

1- رواه البخاري (3861).

2 - ذكره مسلم في المقدمة (170/1) فقال: وقد ذكر عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نترل الناس منازلهم، وأخرجه أبو داود (4842) وهو ضعيف، فيه انقطاع بين ميمون وعائشة وفيه علل أخرى، وأخرجه ابن عساكر (522/42) عن علي، وفيه الأصبغ بن نباته متهم بالكذب، فلعله من قول عائشة رفعه من رفعه خطأً لضعفه في الحفظ.

3 صحيح لغيره، أخرجه أبو داود (4375) وأحمد (181/6) والبيهقي في السنن (334/8) من طرق يرتقي بها إلى درجة الصحة لغيره.

4- السنن الكبرى للبيهقي (334/8).

5- انظر سيرة ابن هشام (223/4).

قال صلى الله عليه وسلم: ((من أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يُبْدِ له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه، فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه له)).[1]

وأهدت إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم للنبي طعاماً، وكانت ليلته عند بعض نسائه، فضربت التي النبي في بيتها بيدها يد الخادم فكسرت القصعة، فضمها وجعل فيها الطعام، ويقول: ((غارت أمكم)) وقال: "كلوا" وحبس الخادم والقصعة حتى فرغوا، فدفع القصعة، وحبس المكسورة.[2]

أي: أخذ من بيت التي كسرت القصعة قصعة سليمة وأرسلها للزوجة صاحبة القصعة المكسورة.

ومع بساطة هذه القصة، إلا أنها لا تخلوا من مدلول عظيم على خلق النبي صلى الله عليه وسلم، وتقديره لأحوال الناس، وظروفهم الطارئة.

ولو فعل أحد العلماء مثل هذا الفعل أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكان فيه من الاستهجان وتجاوز حدود الأدب الشيء الكثير، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أدرك حالها -وقتئذ- الخاصة، وما ثار فيها من غيرة النساء التي تفقدهن عقلهن، وحسن التصرف، فما زاد أن قال: ((غارت أمكم)).

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكي على ولدها، فقال: ((اتقي الله واصبري))، قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأتت باب النبي صلى الله عليه وسلم فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: ((إنما الصبر عند الصدمة الأولى))[3].

ولا شك أن كلمتها (إليكَ عني) كلمة كبيرة على أحدنا، فكيف إذا قيلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟!؟

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سيد الحكماء، أدرك ما كانت المرأة عليه من حالة خاصة، فضلاً عن أنها لم تعرفه.. فأعرض عنها، بل أعرض عن تعليمها، لأنها في حال لا يُمَكّنها من القبول والفهم، فلما جاءته وكانت في نفسية غير نفسيتها الأولى، أقبل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم يعظها ويعلمها ولا يعاتبها.

1- رواه أحمد (3/403-404)، والطبراني في الكبير (17/367)، والحاكم (3/290) وصححه الألباني في السنة لابن أبي عاصم (1096-1098).

2- رواه البخاري (2481، 5225).

3- أخرجه: البخاري (1223) ومسلم (926) وغيرهما.

ولما نزلت الآيات بتبرئة عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، قالت أمها: قومي فاحمدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ((لا والله؛ لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل)).[1]

ولا شك أن هذا القول لا يتناسب، ومقام الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو كان مع أحدنا، لوجد في نفسه ما وجد.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سيد الدعاة أدرك حالها الخاصة، فلم يجد في نفسه عليها، بل لم يعاتبها مجرد عتاب على هذا التصرف.

وانظر -يا رعاك الله- إلى هذا الحدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم... وتأمل ما فيه من الحكمة في مخاطبة المدعو بما يناسب حاله.

جاء شاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه، فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: ادنه فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: "أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: "ولا الناس يحبونهم لأمهاتهم" قال: "أفتحبه لابنتك؟" قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: "ولا الناس يحبونهم لبناتهم" قال "افتحبه لأختك؟" قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: "ولا الناس يحبونهم لأخواتهم" قال: "أفتحبه لعمتك؟" قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: "ولا الناس يحبونهم لعماتهم" قال: "أفتحبه لخالتك؟" قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: "ولا الناس يحبونهم لخالاتهم". قال: فوضع يده عليه، وقال: "اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه" قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.[2]

لقد أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم حالته الخاصة، فلقد كان يتصارع في نفس الشاب شهوة عارمة، وإيمان صادق، ولم ير الشاب -وقتئذ- حلاً لهذا الصراع، وفضاً لهذا النزاع.. إلا إذناً مؤقتاً من النبي صلى الله عليه وسلم يتجاوز به حدود الشرع مؤقتا.. ثم يرجع إلى الشرع.

فتقدم من النبي صلى الله عليه وسلم ليستأذنه بالزنى بكل صراحة

وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم حال الشاب، فلم يتوجه إليه بموعظة إيمانية، فضلاً عن أن يعنفه أو يوبخه أو يطرده، لأن الشاب كان ممتلئاً إيماناً، ولولا ذلك لزنى دون إذن النبي صلى الله عليه وسلم وعلمه، وما دفعه إلى الاستئذان إلا الإيمان. فراح النبي صلى الله عليه وسلم يذكره بما في هذا العمل من مفسدة أخلاقية عظيمة.. تستبشعها الفطر السليمة، وتستقبحها النفوس العفيفة.. إذ أن المسألة

---

[1]- انظر قصة حادثة الإفك عند البخاري (4750).

[2]- رواه أحمد (5/256-257)، والطبراني في الكبير (7679، 7759)، وفي مسند الشاميين (1523) وقال الهيثمي في المجمع (1/129): رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح

ليست مسألة حرام فحسب... بل فيها مفاسد أخرى، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول له: إذا استأذنت لك من الله... فكيف تحصل على الإذن من آباء المزني بهن، وإخوانهن وأعمامهن وأخوالهن، وإذا أذنت لك بالزنى بقريبات هؤلاء.. فهل ترضى أن آذن لهم فيزنوا بقريباتك...

ولما بدأ الشاب يشعر أن لا مجال للإذن، ولا سماح بالإثم.. سارع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تثبيته بدعاء، يثلج الصدور.. ويطمئن القلوب.. ويهدئ الأنفس ((اللهم اغفر ذنبه.. وطهر قلبه.. وحصن فرجه))[1]

ولو ذهبنا نتتبع النصوص من الكتاب والسنة، في تقدير ظروف المدعوين، لطال بنا المقام، واللبيب يكفيه الإلمام.

مراعاة حاجات المدعوين:

من الضروري للداعية الحكيم: أن يراعي حاجات الناس، من فقر ومرض ونكاح، وأن لا يتجاهلها، بل يكون قوي الملاحظة في ذلك مع المدعوين.

فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة، فإذا بأبي هريرة رضي الله عنه في الطريق، وقد خرّ على وجهه من الجهد والجوع، فقال له: "يا أبا هر" فقلت: لبيك رسول الله وسعديك، فأسخذ بيدي فأقامني.

وعرف الذي بي فانطلق بي إلى رحله، فأمر لي بعس من لبن، فشربت منه، ثم قال: ((عد فاشرب يا أبا هريرة)). [2]

ومن أعظم الفوائد الدعوية في هذا الحدث.

تفطن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حال أبي هريرة، و عدم تجاهل حاجته...

ومن بديع ما يذكر هنا: أن أحد الصحابة جامع زوجته في رمضان، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال له: "هل تجد رقبة تعتقها؟" قال: لا.. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين..؟ قال: لا.. فقال: فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال: لا.. قال: فمكث النبي صلى الله عليه وسلم، فبينا نحن على ذلك أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيها تمر -والعرق المكتل- قال: أين السائل؟ فقال: أنا. قال: خذها فتصدق به، فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما

---

[1]- تقدم تخريجه في ص (141).

[2]- رواه البخاري (5375).

بين لابتيها، -يريد الحرتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه.. ثم قال: ((أطعمه أهلك)).[1]

فما أحوجنا إلى هذا الفقه العظيم.. و إلى تقدير ظروف المدعوين، إذ انقلب الذنب عليه -لصدقه ولحاله- نعمة.. فهل من مدكر.

ولما أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة أحد الصحابة ممن كان يخدمه في الزواج قال له: ((يا ربيعة ألا تتزّوج؟))[2].

وأشهر من هذا كله: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر الأئمة أن يخففوا من الصلاة معللاً ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: ((أيها الناس إنكم منفرون فمن أمّ بالناس فليخفف فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة)).[3]

ولا شك أن غنى الفقير، وزواج الأعزب، وشبع الجائع، مطلب عظيم، وحاجة ملحة، لا ينبغي للداعية أن يغفل عنها أو يتغافل عنها.

مراعاة أحوال الناس العامة، وما اعتادوا عليه:

أي ما هم عليه في دينهم وبلدهم وطريقة حكمهم، وما اعتادوه في حياتهم، وورثوه من آبائهم.

فقد يكون قوم حديثي عهد بإسلام، اعتادوا محرماً -يعلمون أنه محرم أو لا يعلمون- لا يمكنهم الانفصال عنه في عشية أو ضحاها.

وقد يكونون في ضعف واضطهاد، لا يمكنهم القيام بشعائر الإسلام كلها، أو حال قوة واستقرار، أو حال علم ودين، أو حال جهل وفجور.

فلابد للداعية أن يكون بصيراً بواقع الناس، عالماً بأحكام هذا الواقع.. فكما أن لكل قوم حال.. فإن لكل حال حكم ومقال.

---

[1]- رواه البخاري (1936)، ومسلم (1111)، واللابة أو الحرة هي الأرض الصخرية السوداء وكان على طرفي المدينة حرشان، فأراد بهذا الساكنين من أهل المدينة بين هذين المكانين..

[2] رواه أحمد (4-58-59)، والطيالسي في مسنده (1173)، والطبراني في الكبير (59/5)، والحاكم (2/172-174)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وتعقبه الذهبي بقوله: لم يحتج مسلم بمبارك، ورواه الحاكم أيضاً (521/3) مختصراً، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (256/4-257)، وقال: رواه أحمد، والطبراني وفيه مبارك بن فضالة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح.

[3]- البخاري (90)، ملم(466) وغيرهما.

المطلب الثاني: تقسيم عادات الناس إلى ثلاثة:

الأول: ما اعتادوه مما هو محرم، لكنه مما عمّ فيهم وطم، كاعتياد النساء السفور والاختلاط، وسماع المعازف والدخان، وما شابه هذه المحرمات في بعض البلاد.

الثاني: ما اعتادوه مما سكت عنه الشرع، لا يحرمه ولا يوجبه، ومن ذلك، ما اعتادوه في أطعمتهم وألبستهم وولائمهم وأفراحهم، وأدويتهم، وطرق بنائهم، وما شابه ذلك.

القسم الثالث: ما اعتادوه من الأخلاق الفاضلة، مما حث عليه الشرع حثاً عاماً، دون تقييد أو تخصيص، كالكرم والمروءة، وإغاثة الملهوف، والتعاون في حاجات المجتمع، وما شابه ذلك.

ولا بد للداعية قبل أن يخوض غمار الدعوة إلى الله تعالى: أن يكون على إدراك واقعي وعلم شرعي، وحكمة دعوية في هذه العادات،حتى يضع الأمور في مواضعها، ويترل الأحكام على وقائعها، وحتى لا يتعرض لما يوقف دعوته، ويعرقل مسيرته.

لأن التعرض لعادات الناس دون حكمة، مفض في كثير من الأوقات إلى الفتن، واتهام الداعية، ومؤذن بعزله عن المجتمع، وتوقفه عن دعوته.

ذلك لأن تخلي الناس عن عاداتهم، ولو كانت محرمة ليس بالأمر الهين، ولا يدعونها بموعظة أو موعظتين.

فأما عادات الناس التي حث عليها الشرع، فيثني الداعية على الناس فيها خيراً، ويشجعهم على الاستمرار عليها، ويذكر لهم ما فيها من الخير والنفع، وما يترتب عليها عند الله من الأجر والعطاء، كي يستمروا عليها، ولا يتخلوا عنها.

وقد جاءت النصوص من الكتاب والسنة بالثناء على العادات الحميدة، ولو فعلها الجاهلون.

قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ** ﴾. [آل عمران: 74]

وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على بعض أفعال الجاهلية من ذلك: التحالف الذي كانوا يفعلونه على عمل الصالحات، كحلف المطيبين [1]، وحلف الفضول [2]، وقال صلى الله عليه وسلم: ((شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكثه))[3].

وأما عاداتهم الدنيوية: التي سكت عنها الشرع، فلا يتعرض لها الداعية، من قريب أو بعيد، سلباً ولا إيجاباً.

فإن النبي صلى الله عليه وسلم، لما تعرض لعادتهم في تأبير النخل، أفادهم بعد ذلك: أنه رأي رآه، وليس أمرًا دينيا أمر به، فقال صلى الله عليه وسلم: ((أنتم أعلم بأمر دنياكم)).[4]

وأما عاداتهم التي حرمها الشرع، واستمرأتها أنفسهم، واعتادت عليها طباعهم، وانتشرت في مجتمعهم.

فيراعي في النهي عنها ثلاث:

الأولى: عدم التعرض لها كلها دفعة واحدة، والبدء بالأهم، فالأهم أي بالتدرج.

فإذا رأى في المجتمع مثلا اختلاطاً وكشفاً لوجه المرأة، وهو يرى عورة وجه المرأة، فليس من الحكمة أن يبدأ بالأمرين.

وإنما يختار الأخطر، وهو الاختلاط، ويؤخر الكلام عن كشف الوجه.

الثانية: أن يتعرض للعادة، دون التعرض لأصحابها، والحكم عليهم.

ففي مثالنا السابق يذكر خطورة الاختلاط وحرمته، وما يفضي إليه من مفاسد عظيمة، ويضرب أمثلة مطلقة غير معينة.

ولا يتعرض للمختلطين بالحكم عليهم، كأن يقول: المختلطون ديوثون، أو فاسقون أو قليلو مروءة.. إلى غير ذلك من الأوصاف والأحكام المنفرة، والتي تكون -أكثر الأحيان- غير صحيحة.

الثالثة: أن يلتزم منهج التغيير الذي سنبينه لاحقاً.

ومن ذلك: اختلاف طريقة النهي عن المحرم الذي شاع بين الناس واعتادوه-، ومنهم من لا يعلم حرمته، أو غير مقتنع بها- اختلافها عن طريق النهي عن محرم يتعاطاه بعضهم، والناس له كارهون.

---

[1] حلف المطيبين: وهو حلف عقد في أيام الجاهلية، وسمي بهذا لأن المتحالفين طيبوا الكعبة، وطيبوا بعضهم، السيرة لابن هشام (150/1)

[2] الفضول: هو حلف عقد في الجاهلية، وقيل سمي بذلك لأن معظم المتحالفين كانت أسماؤهم (الفضل) السيرة لابن هشام (153/1)

[3]- رواه أحمد (190/1) رقم 1655، والبيهقي في السنن الكبرى (366/6)، وصححه الحاكم (219/2-220) ووافقه الذهبي.

[4]- رواه مسلم (2363).

تتجلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا تجلياً واضحاً في كثير من عادات الجاهلية.

ومن ذلك؛ ما اعتاده الناس قبل الإسلام، من الزنى، والتمتع بالنساء، فحرم الإسلام الزنى، وسكت سكوتاً مؤقتاً عن متعة النساء.. ثم حرمها.. ثم أباحها في بعض الظروف الخاصة التي مرت بالمسلمين.. ثم حرمها إلى الأبد[1]..

وهذا الأمر؛ وإن كان يدخل في باب التدرج بالمحرمات، ولكن لم يكن إلا تقديراً لظروف القوم الخاصة، وما اعتادوا عليه طوال حياتكم.. فمن الصعوبة بمكان أن يتخلوا عنه بسهولة، لذلك راعى الإسلام حالهم، و لم يتغافل عن ظرفهم.

وسيأتي تفصيل ذلك وأدلته في فصل (منهج الدعوة).

وخلاصة هذا الباب: أن يراعي الداعية ظروف المدعوين، وأن لا يكن غافلاً عنها. فإن الدعوة إلى الله ليست دعوة خالية، ولا مقالة نظرية.. بل هي دعوة عملية، وممارسة واقعية، لا تغفل عن ظروف الناس، ولا عن أحوالهم.. بل هي تعالج هذه الأحوال في إطار الشرع المطهر تحت ظل الحكمة.

وسائل الاتصال الدعوي

وهي الأدوات التي يستعان بها في تبليغ الدعوة.

وهي نوعان: **مادية**: تتكون من المادة: الكتاب، والورق، والتراب، ومكبر الصوت، والمنبر، والشريط، وما شابه ذلك.

النوع الثاني من الوسائل: **عملية**: وهي طريقة متبعة مخصوصة بالبيان: كالدرس، والمحاورة، والمناظرة، والمحاضرة والخطبة، وما شابه ذلك.

والوسيلة ليس لها تأثير في الغاية غالباً، لا في المضمون الدعوي المقدم، ولا في طريقة التعبد ولا في فحوى الدعوة وإنما أثرها في الأداء، لزيادة التوضيح، وحفظ المعلومة، أو لتوسيع رقعة الدعوة، أو تسهيل القيام بها، وما شابه ذلك.

والناس في حكم الوسائل الدعوية: طرفان ووسط..

طرف؛ أطلق لنفسه العنان في استخدام كل ما يستطيعه من وسيلة، وجعل الأصل الإباحة المطلقة، دون النظر إلى ضوابط شرعية، أو مفاسد دينية.

فاستعمل وسائل محرمة، كالمعازف، والتصوير من غير ضرورة.

وطرف ضيّق المسألة، فجعل الأصل المنع والتوقيف، ولا يبيح وسيلة إلا بنص.

---

[1] راجع صحيح مسلم (1406)، والسنن الكبرى للبيهقي (204/7).

وفي هذين الطرفين مجانبة الصواب لا تخفى.. من إباحة المحرم، أو تعطيل المصالح، وعرقلة الدعوة.

ومن المعلوم: ألا دعوة إلى الله بما حرم، وإلا كنا (ميكيافليين)(1)، لا متبعين في هذا شرع رب العالمين، كما أنه لا توقيف في الشرع لمادة يستعان بها، والمانعون أول من يخالف هذا في مسلكهم الدعوي.

والوسط الحق: أن الأصل في الوسائل بنوعيها.. الإباحة، إلا ما ورد الدليل بمنعه، وهي اجتهادية، يخضع استعمالها لقواعد المصالح والمفاسد.

فيبنى المسجد من طين، ومن حجر، ومن حديد، واسمنت، بما يتناسب وأحوال المكان والناس.

وأما الزخرفة – على سبيل المثال - فهي – لاشك – وسيلة، ولكنها لا تجوز، لورود النهي عن ذلك(2).

الأصل في الوسائل الإباحة: والأدلة على ذلك صريحة في الكتاب والسنة، من ذلك:

الأول: قوله تعالى في باب وسائل الجهاد: { ***وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ*** } [الأنفال:60]، فإطلاق الأمر، وعدم تقيده بوصف، يدل على الإباحة المطلقة، ما لم يرد دليل يستثني، أو يحرم، ولو لم تكن الوسائل اجتهادية، لما جاز صنع سلاح إلا بدليل شرعي خاص به.

وكفى بهذا دليلاً على ذلك.

الثاني: قوله صلى الله عليه وسلم: ((الخيل لثلاثة ؛ لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر..))(3).

ولا شك؛ أن الخيل ليست طريقة – حسب التعريف السابق – ولا غاية، بل هي وسيلة من الوسائل المباحة، وقد ترك الحديث حكمها مطلقاً، مما يدل على الإباحة، وعلق أجرها بالنية، وبالغاية منها، وهذا يؤيد ما قعده الفقهاء من أن: **حكم الوسائل حكم غاياتها**[4].

ضوابط استخدام الوسيلة الشرعية:

لكي تبقى الوسيلة مباحة على الأصل، لابد من ذكر ضوابط لذلك، حتى لا يُتجاوز في استعمالها، فتصبح محرمة.

---

[1] هم أتباع طريقة المنظِّر (ميكيفلي) الأيطالي الأصل الذي أطلق قاعدته الضالة المضللة: (الغاية تبرر الوسيلة)، والقاعدة الشرعية التي تقابل هذه (الوسائل بحكم غاياتها) وشتان بين الضلال والهدى.

[2] انظر أبو داود (448)

[3] رواه البخاري (2646)، ومسلم (987)

[4] أخرجه الطبراني (ج 11 رقم 11335)، والديلمي في مسنده رقم (5309)، وحسنه الألباني، في صحيح الجامع.

الأول: الأصل جواز استعمال الوسائل، وعدم التخلف عنها، إلا إذا ورد نهي عنها، أو ترتب على استعمالها مفسدة، وقد سبق الاستدلال على ذلك.

الثاني: يتأكد استعمال الوسيلة عند ورود نص بالحث عليها، أو عندما يُفوّت بتركها مصلحة، أو يجلب مفسدة.

كإعداد القوة للقتال، ووجود الكهرباء في المسجد.

فأما الأول: فقد ورد فيه النص، وأما الثاني: فتتحقق باستعمالها مصالح، ولا يترتب على ذلك أدنى مفسدة.

الثالث: أن لا يُتجاوز في الوسيلة مهمتها، حتى لا تصبح الوسيلة غاية في ذاتها، إذ غايتها إعانة الناس.

فالمنارة - مثلاً - وسيلة، مهمتها توسيع رقعة الأذان، ويمكن أن تكون وسيلة للدلالة على المسجد، فلا يجوز بناؤها بحجم كبير، وزخرفتها زخرفة بالغة، تخرج بذلك عن كونها وسيلة لرفع الأذان، أو للدلالة على المسجد، فتصبح غاية في نفسها، يتباهى بها أصحابها.. حتى وجد من ينكر وجود مسجد بلا منارة كبيرة، أو منبر غير مرتفع أو غير مزخرف.

ودليل ذلك: أن جَعْل الوسيلة غاية، يجعلها طريقة تعبدية، فتصبح بدعة.. وتحريم البدع معلوم من الدين بالضرورة.

الرابع: أن لا يكون لها أثر في المادة الدعوية - أو الأمر الديني نفسه.

أي: لأجل التمثيلية، تغير في بعض عبارات الممثل عنهم، أو تقطع الصفوف لأجل طول المنبر وعظمه، تقطع الصفوف، وما شابه ذلك، فتكون هناك مخالفات شرعية واضحة.

الخامس: جواز استعمال الوسيلة التي حرمت سداً للذريعة، عند تحقق المصلحة، وعلى قدر الحاجة، وأن لا يترتب عليها المفسدة التي حرمت لأجلها.

وثمة وسائل جاء النص من الكتاب والسنة بتحريمها، كاستعمال الناقوس، والتصوير، والمعازف، والنظر إلى النساء.

غير أن التحريم - كما هو معلوم - إما أن يكون لذات الشيء كالزنى، والخمر..

وإما أن يكون سداً للذريعة كالتصوير، سداً لذريعة الشرك، والمضاهاة، وكالنظر إلى النساء سداً لذريعة الفاحشة.

فما كان سداً لباب ذريعة، أبيح عند تحقق المصلحة الراجحة، بشرط أن لا يترتب على العمل به تلك المفسدة التي حرم لأجلها.

فمثلاً: النظر للنساء محرم سداً لباب ذريعة الفاحشة، فيباح عند النظر إلى المخطوبة، لتحقق مصلحة راجحة، ولانتفاء تحصيل مفسدة الفاحشة.

قال ابن تيمية: ((النهي إذا كان لسد الذريعة، أبيح للمصلحة الراجحة)) [1].

السادس: أن لا يكون أصل الوسيلة شعاراً للكافرين، كبناء المساجد على شكل كنائس النصارى، كما هو الحال في بعض البلدان، أو استعمال الناقوس أو الجرس للتنبيه على بدء أمر شرعي كالأذان أو الصلاة.

ودليل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ((من تشبه بقوم فهو منهم))[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: ((ليس منا من عمل بسنة غيرنا))[3].

حكم الوسائل حكم مقاصدها:

إذا كانت الغاية مشروعة، وكانت الوسيلة غير منهي عنها، شرعت الوسيلة، كاستخدام مكبر الصوت في الأذان، فإن الغاية تبليغ الأذان، فالأذان غاية مشروعة، ولم يرد نهي عن استخدام مكبر الصوت، فتشرع هذه الوسيلة.

وأما إذا كانت الغاية مذمومة، فلا تشرع لها أي وسيلة كانت.

وهذا أمر مسلم عند كل ذي عقل.. فلا يجوز استخدام آلة لصنع الخمر، أو ما شابه ذلك، فعلى مستخدمها إثم لأن غايتها لا تشرع.

الوسائل وتطورها، وقواعد استخدامها الفنية:

ثمة أمور فنية لاستخدام الوسائل، تزيد من فاعليتها، وتوسع من أثرها.. وتُذهب سلبياتها.

فبناء على ما سبق من البيان، والتفصيل، وما ورد من النصوص التي فيها ذكر الوسائل أو استخدامها، ينبغي للداعية أن يراعي – عند استعمال الوسائل – ما يلي:

أولاً: **عدم التقصير في استخدام الوسائل المتاحة والمتنوعة**، والنافعة، طاعة لربه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وخدمة لدينه، و نشراً لدعوته.

---

[1] مجموع الفتاوى (164/1)

[2] أخرجه أبو داود (4031)

[3] سبق تخريجه ص ( )

ثانياً: أن تكون الوسيلة مناسبة لزمانه، ومكانه، وللمدعوين.

من المهم للداعية ؛ أن تكون الوسيلة بما يتناسب وزمانه، ويتواءم ومكانه، و يتواكب وثقافة المدعوين، فلا يستخدم وسيلة فوق مداركهم، ولا دونها.. ولا مالا يناسب بيئتهم.

ثالثاً: أن تكون بسيطة واقعية، غير متكلف فيها، وألا تقلب إلى غاية.

ينبغي أن لا يغادر ذهن الداعية: أن الوسيلة هي وسيلة، وليست غاية.. وأنها لأداء دور لا تتعداه، لتصل إلى منهج الدعوة، أو تؤثر في مضامين التبليغ، أو تشغله عن الدعوة.

لذلك لا ينبغي التكلف بها، حتى لا تشغل عن المقصود، وأن تكون بسيطة التركيب، ومن واقع البيئة، فقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم – كما مر سابقاً – الرمل والحصى، والجدي، والخشب، كل هذه وسائل من بيئته **لم يتكلف في صنعها.. ولم يقصر في استخدامها.**

فمثلاً لا تزخرف اللوحات الدعوية، ويتفنن في خطها إلى درجة لا تكاد تقرأ [1].

وكذلك؛ التمثيليات المشروعة، فإن المقصود منها توضيح المقصود الديني، وزيادة ترسيخه في الأذهان، فلا ينبغي أن تصرف عليها الأموال، وأن تكرر الأدوار، وتركز الأنوار، وتضيع الأوقات، ويسرف في الألبسة والتزيين، فتكون مفاسدها والحال هذه أكثر من المصلحة المتوخاة منها، وكذلك ما يفعله بعض المسلمين، في المنابر، والقبب، والمآذن.. من التكلف بها حتى يخرجها عن المقصود.

رابعاً: مواكبة تطور الوسائل.

من حكمة الداعية وفطنته، أن يواكب تطور الوسائل، وبخاصة في هذا العصر، وأن لا يتخلف عن ركبها، واستعمالها، لما لها من أثر كبير في توسيع إطار الدعوة، وتوضيحها، بل عليه أن يبتدع فيها، وأن يبدع في استخدامها ما استطاع، فإن عجلة القطار إذا سارت لا ترحم من صادمها، ولا تنتظر من تأخر عنها.

ولقد تراجع كثير من الذين كانوا يستنكفون عن استخدام بعض الوسائل؛ كالإذاعة، والرائي والفضائيات، لما أحسوا بخطورة هذا التخلف عن هذه الوسائل، وسارع كثير منهم إلى استعمالها، بعد ما كانوا ينتقدون من استعملها.

وليس من المبالغة في شيء أن يقال: إن للمسلمين القِدْح المُعَلّى، وقصب السبق في استخدام الوسائل عبر تاريخهم الطويل، لخدمة دينهم، ونشر دعوتهم.

---

1 وقد رأيت لوحة قد كتبت باللغتين العربية والإنجليزية، فلم أستطع أن أميز بعض الحروف العربية، فلجأت إلى الحروف الإنجليزية فتبين لي المقصود من الحروف العربية.

فلا أدل على ذلك من استخدام المسلمين لكل آلة حدثت، مما يمكن استخدامها لخدمة الدين، ونشر الدعوة، وبخاصة في هذا العصر، كالفضائيات، والشبكة العالمية (الإنترنت)، والبرامج الحاسبية، ولا يوجد برامج دينية على وجه الأرض خدمت الدين، كما هو الحال في البرامج العلمية الإسلامية، كموسوعة التفسير، وموسوعة الحديث، وموسوعة الفقه، وبقية الموسوعات.

خامساً: الموازنة بين الأثر والبذل.

من بصيرة الداعية – قبل أن يقبل على استخدام وسيلة ما – أن يتفطن لأثرها، وكلفتها، وأن يوازن بين الأمرين، بين بذل الوقت والمال والجهد، وبين أثرها.

فتسجيل المحاضرات على أشرطة سمعية، لا يكلف شيئاً في هذا الزمان، مقابل أثرها النافع.

ولكن؛ تأليف كتاب كبير في مسائل فرعية، أو اجتهادات فقهية، كوسيلة دعوية، ليس له أثر أكبر، بإزاء تكلفته.

هذه الشروط الفنية، مما نص عليها التربويون المعاصرون من الغربيين وغيرهم.

فالمتتبع للوسائل التي استخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ يجد تحقق هذه الشروط الفنية – المذكورة سابقاً – فيها تحقيقاً عظيماً، وهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم سبق التربويين جميعاً في تقرير ذلك.. ولكن هل من مدّكر.

فقد استعمل صلى الله عليه وسلم الوسيلة المتوفرة، والمناسبة في الوقت المناسب، وبالاستخدام الموفق، فاستخدامه الجدي الميت لأنه الوسيلة المتوفرة – وقتئذ – وهي مناسبة للبيئة، وتتوافق ومدارك المدعوين.

وحين استخدم صلى الله عليه وسلم الرسم على الأرض كان هو الوسيلة المتاحة يومئذ.

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم لو توفرت له غير هذه الوسائل، لاستخدمها، كاللوح المعلق والقلم. لأن المقصود التوضيح والبلاغ، وهما يكونان على اللوح المعلق، أوضح من كونهما على الأرض في البيان.

وعندما لم يتمكن عثمان رضي الله عنه من طباعة المصحف كما هو عليه الحال اليوم من الطباعة والنشر، كتبه ووزعه بالوسيلة الممكنة يومئذ.

لم يخل عصر من العصور من الوسائل الدعوية، ولم يقف المسلمون – والحمد لله – حيالها موقف المتهاون، بل أحسنوا استخدامها.

وقد اخترع في هذا العصر، وسائل مادية، وطرقية، انتشرت انتشاراً لم يعهد له سابقة.

وسائل الاتصال بالفعل:

القدوة:

الهدايا والتبرعات:

المشاركة في المناسبات الاجتماعية:

تقديم التوجيهات والنصائح والخدمات:

وسائل الاتصال اللفظي:

"مع الإشارة إلى وجود علاقة بين الرسالة اللفظية وغير اللفظية، فقد تكون شارحة، أو مدعمة أو معيقة لها. فالرسالة هنا جزء منها لفظي يؤيد تلك الرسالة أو ينفيها، **والتواصل بين** معتمد على الجانب السلوكي والحركي والتعبيري لدى الأفراد المشتركين في العملية"[1].

"الاتصال اللفظي هو الذي يتم من خلال استخدام الرموز اللفظية ويطلق عليها "**اللغة**" سواء أكانت **مكتوبة** أم **منطوقة** أم **مسموعة**، ويعتمد فيه بصفة أساس على **اللفظ** كوسيلة لنقل المعاني، إلا أن اللفظ ذاته يخضع إلى التعدد والتنوع، فهناك اللفظ ذي المعنى الضمني والمعنى الصريح، فالأمر يتوقف فهمه على قدرة المستقبل على فهم دلالات الرموز ومعانيها كما يقصدها المرسل"[2].

والقدرة هنا تنقسم إلى نوعين:

قدرة المرسل أو المصدر على بناء الرسالة الاتصالية، من حيث انتقاء الألفاظ بكيفية تمكن من نقل المضمون إلى المستقبل وإيصاله على النحو المراد.

قدرة المستقبل أو المتلقي على تحليل المعاني وفهم مضمون الرسالة، ويشمل ذلك القدرة الذهنية، والخبرة ورصيده من المعرفة.

وتوجد علاقة تناسبية بين بناء الرسالة من جهة، وفهمها من جهة أخرى، فكلما كان بناء الرسالة دقيقا وواضحا كانت احتمالات فهم المضمون مرتفعة، وهكذا العلاقة تعكس أهمية العناية بالاتصال بين الأطراف الفاعلة والمشتركة في العلمية.

وهناك من يعبر عن علاقة القدرة بـــ (القوة) ويقول: إن جزءا مهما مما يحدث في التواصل اللفظي يقوم على أساس القوة وحتى مضمون الرسالة نفسه يبقى غير معقول طالما لم تؤخذ في الاعتبار

---

[1] – منال طلعت محمود: **مدخل إلى علم الاتصال**– المكتب الجامعي الحديث، مصر، 2002، ص30.

[2] – منال طلعت محمود: **مدخل إلى علم الاتصال**– مرجع سابق، ص32.

علاقات القوة التي تكون حاضرة حضورا غير قابل للرؤية في الغالب[1]، فالرسالة الموجهة من إمام خطيب في صلاة الجمعة مثلا إلى جمهور المصلين تتوفر على عناصر القوة التي تخولها سلطة المنصب أكثر من الرسالة الموجهة من أحد المصلين إلى غيره من المصلين.

والاتصال اللفظي ضرورة لكل جماعة وكل تنظيم اجتماعي، فمن خلال اللغة للفظية يتم تشكيل الفكر والمنظومة الفكرية، ومن خلالها يتم البحث والتخطيط والتنفيذ، وجميع هذه الخصائص مرتبطة بأهداف الدعوة. فالبحث عن المشاريع الدعوية والتخطيط لتحقيق نجاحها يتوقف بدرجة أساس على مدى فاعلية الاتصال حيث أن الكلمة المنطوقة والمكتوبة وسيلة لا بديل عنها لنقل المعلومة وتحويلها إلى خبرات مشتركة لها دلالاتها ومعانيها التي تساعد على تحقيق أهداف الدعوة.

تعد الكلمة؛ الوسيلة الأولى والأساس في مجال الدعوة، بل في عالم الخلق على مر العهود، ولمختلف الأجناس، و لطبقات الناس جميعاً.

وهي أبسط الوسائل استعمالاً، وأسهلها تناولاً، وأقلها كلفة، وأسرعها استجابة، وأكثرها انتشاراً، وأعظمها نفعاً. فبها بدأ الله الخلق، و بها بعث الله الرسل، و بها أمر ونهى، و بها رفع ووضع، و بها أحيا وأمات.

وسائل الاتصال الشخصي أو الذاتي:

عندما نتحدث عن الاتصال الذاتي فإننا نعني بالتحديد الذات البشرية كأصغر وحدة في العملية الاتصالية، فالذات ما هي إلا نتاج للمعايشة الشخصية لتوقعاتنا وأدوارنا في مختلف المواقف الاجتماعية، وكما يرى كل من **مانس وماتزر** فإن مدركاتنا الحسية اتجاه ذاتنا مستوحاة من خلال علاقتنا بالآخرين، الأمر الذي يعني أن تشكيل مفهوم الذات لدى الإنسان ينبثق من خلال تنمية وتطوير الاتصال بالآخرين[2].

ومن هذا الاعتبار تأتي أهمية هذا النوع من الاتصال في الدعوة حيث يمثل كل فرد **ذاتا** تتبادل الأدوار والمواقف مع **الذات** الأخرى بما يعطي العمل الدعوي قدرة على التفاعل المستمر.

ويؤكد **جورج ميد** (1934) على أن إمكانية نشوء مفهوم الذات تبرز من خلال تبني مواقف الآخرين اتجاه الذات. "فجوهر العملية الاجتماعية للاتصال قد يتطلب من الفرد تبني أدوار وأفكار

---

[1] – بيير بورديو– ج . د . فاكونت: **أسئلة علم الاجتماع الانعكاسي** – ترجمة عبد الجليل الكور، دار توبقال للنشر، المغرب، 1997، ص103.

[2] – عبد الله طويرقي: **عالم الاتصال المعاصر**– مكتبة العبيكان، السعودية، ط2، 1979، ص95.

الآخرين كمحاولة منه لإظهار الانسجام معه، لأن مفهوم الفرد لذاته يولد من خلال الاستجابة للذات انطلاقا من وجهة نظر الآخرين له[1].

ونجد أن عنصر التقييم المرتد من الآخرين قد يرتبط بعنصر الذات المتصورة حسب رؤية عالم الاجتماع الأمريكي **كولي** (1912). في عبارته المشهورة **الذات المرئية** والمقصود هنا بالذات المرئية هو القدرة على تخيل كيف نبدو للآخرين[2].

يعرف بعض الباحثين الاتصال الشخصي بأنه: "اتصال وجها لوجه وتفاعل الأفراد مع بعضهم البعض وهو أقوى وسائل الاتصال في تغيير اتجاهات الناس ومفاهيمهم"[3].

بدا الاهتمام بدارسة الاتصال الشخصي في منتصف الستينات من القرن الماضي، حيث أصبح يمثل فرعا حيويا ضمن مجال علم الاتصال وكان **جيرالد ميلر** من أوائل الباحثين الذين اهتموا بالناحيتين، التربوية والعلمية وما يتخللهما من تفاعل، وبدأت الدراسات بالاهتمام بالاتصال الذي يتم داخل الإطار الأكاديمي من خلال الأحاديث بين الأساتذة بعضهم مع بعض، ومع بعضهم وبين الطلبة واللقاءات بين المرسلين بعضهم ببعض، والتي تحدث في الجماعات الصغيرة، وتتخللها علاقات الوجه بالوجه، ثم تحول الاهتمام بالاتصال على الحوارات الخاصة داخل الجماعات الصغيرة مع التركيز على الهدف من الاتصال، وقد تضمنت اهتمامات الباحثين العلاقة الاتصالية مع أصدقائهم والمقربين منهم[4].

ويراعي **جيرالد ميلر** في توضيحه للاتصال الشخصي سياق الموقف الذي يحدث فيه بحيث تتوافر فيه شروط الحد الأقصى من قنوات الاتصال مع وجود الفرص المتاحة لحدوث رجع الصدى السريع. لأن رجع الصدى، كما رأينا في تعريف الاتصال، شرط أساس في عملية الاتصال المباشر، وإذا انعدم هذا الشرط تفقد العلمية صفة الاتصال، وقد تتحول إلى عملية إعلامية هدفها تقديم معلومة دون تتبع الأثر الذي تحدثه لدى المتلقي.

ونظرا لهذه الخاصية يعتبر الاتصال الشخصي اقدر أنواع الاتصال تأثيرا في المتلقي وأنسبها لتغيير الأفكار والاتجاهات والسلوك، الأمر الذي شجع على استخدامه في مختلف أنواع الحملات الإعلامية

---

[1] – عبد الله طويرقي: **عالم الاتصال المعاصر**– مرجع سابق، ص 96.

[2] – عبد الله طويرقي: **عالم الاتصال المعاصر**– مرجع سابق، ص 96.

[3] – فؤاد عبد المنعم البكري: **الاتصال الشخصي في عصر تكنولوجيا الاتصال**– مرجع سابق، ص 23.

[4] – فؤاد عبد المنعم البكري: **الاتصال الشخصي في عصر تكنولوجيا الاتصال**– عالم الكتب، مصر، 2002، ص29.

كالحملات الدعائية والانتخابية .. الخ وفي وقت الأزمات حيث يكثف أطراف الاتصال اللقاءات والاجتماعات وإصدار المنشورات والملصقات في عملية تنافسية لكسب المواقف وكسب التأييد.

وتدل التجارب على أن الأشكال التقليدية للاتصال تكون فعالة في مكافحة الأشكال غير العلمية للسلوك، إذ يستخدم أصحاب هذه الرسائل أشكالا بارعة من الإقناع بصيغ محلية أو فنية أشبه بفن الخطابة، حيث يتفاعل الخطيب مع جمهوره حسب نوعية الاستجابات. وفي كثير من الأحيان يكون الاتصال الشخصي أقدر على التأثير فهو يظل دوما محتفظا بقدرته على قياس استجابات المتلقين والتفاعل وفقا لها في مختلف المواقف[1].

واعتبارا لصفتي المباشرة والمواجهة المميزتين للاتصال ينبغي الإشارة إلى دور اللغة والكلام المنطوق الذي يحتل حيزا كبيرا في نطاق الاتصال حيث "أن أغلب تفاعلاتنا تتم بواسطة اللغة"[2].

(ومن البحوث القيمة في ديناميات التواصل بحث أجراه **لازارسفيلد** في العوامل الاجتماعية التي تؤثر في عملية التصويت في الانتخابات" فقد انتهز فرصة انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1940 فقصد قبيل إجراءها إلى تطبيق استبار على 600 شخص من **أوهايو**، وانتهى من ذلك إلى عدة نتائج، يهمنا منها ما يأتي:

لتحقيق التجانس في الرأي السياسي داخل الجماعة، لوحظ أن الاتصال الشخصي أبعد أثرا من طرق التواصل المختلفة التي تتم عن بعد. (كالمنشورات، والإذاعة) وذلك لسببين:

السبب الأول: أن الاتصال الشخصي يصل إلى عدد من الناس أكثر غالبا ممن تصل إليهم الوسائل الأخرى. كما أنه يصل إلى هؤلاء القوم عددا من المرات يفوق عدد المرات التي تصل فيها الوسائل الأخرى إليهم.

السبب الثاني: أن للاتصال الشخصي مزايا سيكولوجية لا تتوفر لطرق الاتصال غير المباشر، منها: أن الاتصال الشخصي يكون في معظم الأحوال لأغراض غير سياسية، (أغراض خاصة بالعمل، أو مصادقة، أو نزهة...الخ)، ثم يعرض الحديث للسياسة عن غير قصد، وهذه الحقيقة نفسها —العرض عن غير قصد– ذات أهمية كبرى. إذ نفاجأ برأي الغير، فإذا كان مخالفا لرأينا فإننا نواجهه غالبا بدون أسلحة، وبذلك يغلب عليه أن يؤثر فينا تأثيرا فعالا.

---

[1] – فلاح كاظم المحنة: **علم الاتصال بالجماهير**– مؤسسة الوراق، الأردن، 2001، ص 379.

[2] – Judith Lazar: **que sais-je? la science de la communication**– presse Universitaire de France,2éme édition; 1993, p 49.

مرونة الاتصال الشخصي، فالشخص الذي يتولى الدعوة لحزب معين يمكنه أن يختار اللحظة المناسبة والظرف المناسب، وإذا صادف مقاومة في لحظة ما يمكنه أن يتراجع تراجعا مؤقتا حتى لا يزيد من شدة المقاومة. وهذا لا يتيسر لوسائل الدعاية غير الشخصية.

قدرة الاتصال الشخصي على أن يكافئ بالثواب والعقاب.إذ يستطيع الشخص الذي يحاول أن يقنعك برأي معين أن يغضب إذا شعر بعدم موافقتك، ويتركك تمضي، فإذا بك تخسر صديقا، ويشعرك بأن رأيه يمثل رأي الأغلبية، فأنت إذا تنعزل عن الأغلبية بمخالفتك له، وتلك كلها عقوبات، كما يستطيع أن يبتسم ويمدحك إذا وافقته، وهذه الميزة لا تتوفر بهذه الدرجة للدعوة أو للدعاية غير المباشرة)[1].

ويخلص مصطفى سويف من قراءته لعدد من الدراسات في ميدان الاتصال للقول أن: (هذه الدراسات جميعا توضح الآثار المختلفة للتواصل بين أعضاء الجماعة، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

تحقيق التقارب الذهني.

تنميط الاتجاهات.

زيادة اندماج الشخص في الجماعة.

ازدياد كفاءة التفكير بزيادة موضوعيته، نتيجة لانخفاض نسبة العوامل الشخصية.

زيادة تمكين الأعضاء من التوافق المتبادل في مستويات الشخصية المختلفة.

وسائل الاتصال الشخصي المباشر:

الاتصال الشفهي:

إذا نقلت الرسالة بطريق الهواء أو الأثير ودون أن تدون فإنها رسالة شفهية.

الوسائل الشفهية لنقل المعلومات:

يحقق الداعية باستخدامه للوسائل الشفهية لتوصيل المعلومات عدة أهداف: فيضمن عن طريق هذه الوسائل، تبادل الآراء ومناقشتها وبالتالي فهم المدعوين لما يطرح عليهم وبالعكس، كذلك تسهل هذه الوسائل من مهمة إقناع كل من الطرفين بوجهة نظر الآخر، إذ يمكن عن طريق المناقشة توضيح النقط التي يتعذر التعبير عنها بوضوح في شكل كتابي. فضلا عن السرعة في توصيل المعلومات إذ تستغرق عملية شرح وجهة النظر والإقناع بها فترة أقل منها في حالة استخدام الوسائل الكتابية.

---

[1] – د. مصطفى سويف: **الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي**- مرجع سابق، ص237.

لما كان من المعلوم بالضرورة: أن دين الإسلام لا يقوم بالإكراه، ولا ينتشر بالعنف. ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾. وإنما يدعى إليه عن طريق البيان، وإقامة الحجة، ودحض الباطل. قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾.

لذلك شرع الله المجادلة، وما يدخل في هذا الباب ؛ من المناظرة والمحاورة، وما شابه ذلك سبلاً من أهم سبل الدعوة إليه.

ذهب بعض أهل العلم واللغة إلى: أن المجادلة والمحاورة والمناظرة والمناقشة.. كلها ألفاظ مترادفة، ذات معنى واحد، أو متقارب(1).

والمتتبع لألفاظ الجدل والمحاورة والمناظرة والمراء.. وما شابهها في القرآن والسنة، يجد أن ثمة اشتراكاً كبيراً بين هذه الألفاظ في معانيها، وبينهما فروق كذلك، فمن ذلك:

أن الله امر بالجدال، ولم يحدد صوره، وإنما حدد أسلوبه: أن يكون بالتي هي أحسن ﴿ ***وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ*** ﴾ [النحل: 125].

وامتثالاً لهذا الأمر؛ نجد أن رسول الله والأنبياء من قبل، ناظروا وحاوروا، وأن الله وصف ما جرى بين النبي وخولة التي كانت تشتكي زوجها، بالجدال وبالحوار في وقت واحد.

﴿***قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا***﴾ [المجادلة: 1].

المناقشات والأحاديث.

يعتمد الداعية على المناقشات والحوارات في نقل المعلومات إلى المدعوين.

الاجتماعات.

الاجتماعات بين الداعية والمدعوين، يشكل الداعية لجان تعمل بصفة دائمة أو مؤقتة لمناقشة بعض الموضوعات أو لحل بعض المشاكل التي تحتاج إلى رأي وخبرة أكثر.

ويمكن لهذه اللجان أن تقوم بدور فعال في نقل معلومات كاملة وغير محرفة عن الإسلام وقيمه. إذ أن هذه اللجان تتيح الفرصة لاشتراك المدعوين بشكل إيجابي في دراسة وتوضيح الجوانب الغامضة أو القابلة للتأويل.

منافع الاتصال الشفهي:

---

[1]- كتاب الجدل لابن عقيل: المقدمة للدكتور علي بن عبد العزيز العميرين (ص:16) ومناهج الجدل للدكتور زاهر عواض الألمعي (ص: 29) الكافية في الجدل لأبي المعالي الجويني (ص: 19) اللسان (ج د ل)

تتصف بالسرعة والتفاعل التام.

تؤدي إلى الاتصال المباشر بين المرسل والمستقبل، وذلك بفسح المجال إلى المناقشة وتفهم الرسالة بصورة أوضح بسبب ما يبديه كل منهما من انفعالات نفسية وحركات جسمية.

محاذير الاتصال الشفهي:

تتطلب القوت الكثير والتكاليف الباهظة المادية والمعنوية.

قد تؤدي إلى سوء فهم المستمع لأقوال المرسل مما يؤدي إلى أخطاء غالية الثمن، ويصعب مراجعتها.

نصائح للمناظر:

الأولى: كسب القلوب، مقدم على كسب المواقف. إلا أن يكون موقف حق، ودونه الباطل.

الثانية: إذا عُجز عن اقتناعه بدليل، أو راوغ فيه المخالف، فلينتقل إلى دليل آخر، كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الثالثة: الانسحاب عند تبين مراء الخصم، لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا ﴾ [الكهف:22]

ولقوله صلى الله عليه وسلم: ((.. وأنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً))(1).

و لذلك يجب على المتناظرين أن يكونا حريصين أشد الحرص على أن لا تحول المناظرة إلى مراء لا ينفع في علم، ولا يهدي إلى طريق، بل يفسد القلوب، ويوغر الصدور، ويزيد الشحناء، مع إضاعة الأوقات، وإبطال الأجر.

فإما أن يلتزما آداب المناظرة وشروطها، وإما أن ينسحبا، لأن في الاستمرار على المراء إثم عند الله، وفساد عند العباد.

---

[1] سبق تخريجه ص (313)

وسائل الاتصال الشخصي غير المباشر:

الأساليب الالكترونيكية:

التلفون.

التلغراف، التلكس، الفاكس.

الحاسب الآلي.

الدوائر التلفزيونية المغلقة.

الوسائل غير الالكترونيكية: (الكتابية)

يعتبر الاتصال كتابيا إذا كانت الرسالة قد دونت بالرموز الأبجدية أو الرياضية عند نقلها من المرسل إلى المستلم.

قد يتعذر الاعتماد على الوسائل الشفوية إذا كانت المعلومات أو التعليمات كثيرة ومفصلة بحيث يصعب على الشخص المراد توصيلها إليه أن يعتمد على ذاكرته في الإلمام بها خاصة إذا كان تنفيذها يتطلب مدة طويلة.

وتتخذ الوسائل الكتابية شكل دليل يحتوي على محاضرات ومطبوعات ونشرات دورية تقدم إلى المدعوين أو تعلق في لوحات الإعلانات.

وسائل الاتصال الجمعي:

صحف الحائط.

الكتيبات والنشرات (المطويات): المقصود بالكتيبات، تلك الكتب الصغيرة الحجم، والنشرات المطوية، التي يمكن اصطحابها في الحضر والسفر، ومطالعتها متى ما شاء المدعو. فهي وسيلة نافعة، تتوفر فيها ميزات الوسيلة الناجحة.

فوائدها ومزاياها:

سهولة الحمل، وتواجدها عند الحاجة، مما يسهل مطالعتها متى ما شاء المدعو.

إملاء فراغ كثير من الناس، في أماكن انتظارهم، وأثناء سفرهم.

إذ يمكن وضعها في أماكن تجمع الناس وانتظارهم، مما يسهل تناولها لدى العامة، دون كلفة.

قلة التكلفة المادية، مما يساعد على انتشارها.

مناسبتها لحال الناس اليوم، من عدم تمكنهم، أو رغبتهم من مطالعة الكتب الكبيرة.

اللوحات المعلقة: وهي كل لوحة يكتب عليها ما يذكّر الناس.. وتعلق لأجل ذلك.

وهي نوعان: المطلقة، والخاصة.

أما المطلقة: فهي التي يكتب عليها موعظة عامة، تصلح لكل زمان، ومكان، ومناسبة.. ككتابة آية، أو حديث، أو تذكير بذكر، أو بعمل صالح.

وتعلق في المساجد، وعلى جوانب الطرق، وفي البيوت، والدوائر الرسمية، والمؤسسات الأهلية.

وأما الخاصة فهي: التي وضعت لحدث معين، أو للتذكير بأمر، أو بموسم مخصوص، كوفاة امرئ، أو موسم حج، أو دخول عشر ذي الحجة، وما شابه ذلك.

فتكون - والحال هذه - موجهة لأناس مخصوصين، أو لتصرف محدد، كالتذكير بالصبر عند المصيبة، أو الرد بالتي هي أحسن عند الإساءة في الحج، وما شابه ذلك.

نصائح وتوجيهات:

إنه يفضل:

أن تكون في مكان واضح.

أن تبدل كل فترة معينة.

أن يسأل أهل المكان الذي علقت به عن حفظها، فيسأل الإمام المصلين عن حفظها، ويسمع ممن حفظها، ويمكن أن يضع مكافآت لمن يحفظها من الأولاد.

ولو أن كل إمام مسجد وضع كل أسبوع لوحة، تتضمن آية أو حديث، وطلب من المصلين حفظها على مدار الأسبوع، وشرح مضمونها خلال هذه الفترة، لخرج المصلون في هذا المسجد في سنة واحدة باثنين وخمسين آية، واثنين وخمسين حديثاً حفظاً وفهماً.

ولو فعل هذا رب كل أسرة، وعمل، ومؤسسة، ودائرة، لكان في هذا من الخير والدعوة إلى الله، ما لا يتحصل في إذاعة، ولا خطبة، ولا شريط مسموع أو منظور، بل ولا كتاب مقروء...

الأشرطة السمعية والمرئية:

إن لكل وسيلة من هذه الوسائل المذكورة مهمة تؤديها، وثغرة تسدها.

وإن للأشرطة السمعية دور لا ينكر، وللمرئية مهمة لا تجحد.

فهي: علم متحرك، وعلماء جوالون، ودعاة متنقلون، مع كل طالب علم، وراغب هداية، حسب رغبته.

ميزات هذه الوسيلة:

الأولى: ملء فراغ كثير من الناس، منهم:

ركاب المواصلات، والنساء في بيوتهن، والعمال في مصانعهم، والموظفون في مكاتبهم، والمنتظرون في أماكن انتظارهم.

الثانية: إمكانية اختيار المادة المحبوبة لدى كل فرد.

الثالثة: سهولة اصطحاب هذا العلم في السفر والحضر، والركوب، والجلوس، وفي البر والبحر، وداخل البيت وخارجه، وإمكانية السماع منفردين أو مجتمعين.

الرابعة: سهولة اقتناء أجهزتها ومادتها، فقد أصبحت آلات التسجيل والمنظور (الفيديو) بأثمان يمكن لقطاع كبير من الناس اقتناؤها.

الخامسة: إمكانية عقد مجالس علمية ودعوية في كل مكان، بالاستماع إليها، أو مشاهدتها.

إذ يمكن لرب الأسرة عقد جلسة مع أسرته، أو المدرس مع تلاميذه، والمدير مع عماله ؛ والاستماع إلى إحدى المحاضرات والتعليق عليها، ومداولة الرأي، وتدريب المدعوين على إبداء الرأي، والتناصح في العلم، واستخراج الفوائد، وما شابه ذلك.

ولأجل هذه الميزات، فقد شاركت هذه الوسيلة مشاركة فعالة ورئيسة في موكب الدعوة إلى الله.

سلبياتها:

الأولى: ما تزال كلفتها المادية تعيق انتشارها في كثير من البلدان الفقيرة.

ويمكن معالجة هذه السلبية، بتشجيع المحسنين على التبرع بكلفتها، لتوزيعها في تلك البلاد.

الثانية: انفلات حبلها، إذ يمكن لكل من هب ودب أن يلقي ما يريد.. مما جعل كثيراً من الدخن يخرج من خلالها.

وهذا أمر ضبطه من الصعوبة بمكان، إلا عن طريق التأصيل الشرعي، والوعي الديني، الذي يجب أن يتسلح به كل مسلم.

الثالثة: الاستغناء بها عن حضور دروس العلماء، ومجالس العلم، مما يضعف التربية، ويوحي بالتعالم في غياب المربي.

المحاضرات والدروس والندوات:

معظم هذه الوسائل ليست جديدة في المجال الدعوي، وإنما الجديد فيها الترتيب والتخطيط، والقدرة على التبليغ.

فالدروس: لها طابع معروف، وهي: مادة علمية مخصوصة، يلقيها شيخ معين بالتتابع، في وقت ومكان محددين.

وأما المحاضرة: فهي وسيلة من الوسائل الدعوية، ذات طابع خاص.

وهي: إلقاء موضوع معين، لداعية معين، مرة واحدة، في وقت ومكان محددين، ويتم ذلك بالتعاون بين المحاضر – أو المحاضرين في حال الندوة – والمسئولين في الجهة التي رغبت بالمحاضرة أو الندوة.

من ميزات المحاضرة:

تتميز المحاضرة بما يلي:

عرض موضوع واحد، وبأسلوب علمي مقنع، يتدرج فيها المحاضر، ويعطي فيها أفكاره، والأفكار المخالفة، وتكون موجهة لمستوى معلوم من الناس، ويعقبها أسئلة ومناقشة.. كل ذلك يدفع المستمع (المدعو) إلى استجماع أفكاره، وخروجه بنتيجة مثمرة.

وتزيد الندوة عن المحاضرة ميزة، مشاركة أكثر من محاضر في وقت واحد،في الموضوع نفسه، مما يثري المدعوين كثافة في المعلومات، وذلك لتنوع الأفكار، وتفاوت الطرح من المشاركين.

وقد شارك الدعاة في هذه الوسيلة في مضمار الدعوة مشاركة فعالة، واستطاع الدعاة أن يغطوا معظم القضايا الدعوية، غير أن خروج بعضهم عن الإطار الدعوي إلى الاستغراق في قضايا غير دعوية، وانطلاق بعضهم انطلاقة حزبية ضيقة، عكس آثاراً سلبية على الدعوة، وقلل من عدد المحاضرات والحضور في كثير من البقاع.

كما لا يزال العامة، بمنأى من اهتمام الدعاة بهم، وعما يجذبهم، فمعظم المحاضرات كانت تخص شباب الصحوة، ومثقفيها إلا قليلاً قليلاً

الخطب.

المؤتمرات.

المناظرات.

المعارض.

الاحتفالات.

الرحلات.

المخيمات.

وسائل الاتصال الجماهيري:

يستعمل هذا المفهوم لوصف عمليات الاتصال التي تشمل مجموعة من الناس، وتختلف طبيعته في بنيتها عن أنواع الاتصال سالفة الذكر اعتبارا لسببين هامين:

إن المرسل لا يكون في وضع مباشر (وجها لوجه) مع المستقبل أو المتلقي (الجمهور) وبذلك تفقد الوسيلة الاتصالية صفة التبادلية والآنية في الفعل ألاتصالي.

أن الوسيلة تكون عبارة عن أجهزة إلكترونية وتقنيات تستخدمها مجموعة من الأشخاص لتبليغ رسالة محددة إلى جمهور متنوع يمثل فئات مختلفة في تشكيلها.

وكما يقول **تشارلز رايت** "أن المتلقين لا يمكن اعتبارهم جمهورا عريضا بمفهوم الوسيلة إلا في حال تعذر اتصال المصدر بهم مواجهة في الأوضاع العادية بسبب الحجم الهائل والوقت المحدود[1]. ويضيف بأن عملية الاتصال الجماهيري تتوجه إلى جمهور يتميز بأنه كبير نسبيا وغير متجانس وغير معروف معرفة شخصية، ويتم نقل الرسائل بشكل علني ومخطط بحيث يصل إلى أغلب أفراد الجمهور المنشود في نفس الوقت[2].

وما نود التركيز عليه في هذا النوع من الاتصال هو كيفية توجيهه لخدمة أهداف الدعوة، فاستعماله يكون في حدود واسعة لكنه لا يوفر خاصية الديمومة في تواصل الداعية مع المدعوين، ولتنوع وتعدد هذه الوسيلة وتناقض ما تطرحه في كثير من الأحيان وهو ما يجعل المدعو يعيش حالات من التناقض يصعب عليه التغلب عليها.

بل إن كثير من هذه الوسائل ما يقدم مادة دعوية هي في الحقيقة فتاوى شخصية لأشخاص، دون الانتباه إلى أن الفتوى تقاس زمانا ومكانا وشخصا، ودون انتباه الجمهور إلى ذلك.

الصحف والمجلات:

من نافلة القول ؛ أن نذكر ما للصحف والمجلات من أثر كبير في الإعلام المعاصر.

وإذا كان للدعاة أثر في إنشاء كثير من المجلات، فإن جهدهم في إنشاء الصحف ما يزال ضعيفاً، بل كاد أن يكون معدوماً، أمام الكم الهائل من الصحف الأخرى.

ولا شك ؛ أن إنشاء الصحف، لا يأتى من جهد فردين أو أفراد، بل يحتاج إلى مؤسسات دعوية تتبناه، لما يحتاج من إنفاق، وجهد فني وعلمي كبيرين.

---

[1] - عبد الله طويرقي: **عالم الاتصال المعاصر**- مرجع سابق، ص 243.

[2] - محمود الجوهري وآخرون: **علم الاجتماع ودراسة الإعلام والاتصال**- دار المعرفة الجامعية، مصر، 1992، ص 18.

حكمها:

ما يقال: في أنواع الإذاعات، وحكم المشاركة فيها، يقال عن الصحف والمجلات، لتشابه علل الحكم بينهما، فتشابهت الأحكام.

والمشكلة تكمن في مثل هذه الوسائل: أن معظمها غير متميز، فهي ليست ككتاب: يقال فيه: يقرأ... أو لا يقرأ، فقد اختلط فيها الفساد بالصلاح، فصعب التمييز، فأشكل الحكم.

والأحوط للمسلم أن يتجنب مثل هذه الوسائل التي فيها فساد، عملاً بقاعدة: (ومن حام حول الحمى، يوشك أن يقع فيه)(1)، وقاعدة: (دفع المفاسد، مقدم على جلب المصالح)(2).

فوائدها:

تتفق هذه الوسيلة مع وسيلة الكتيبات والنشرات في الفوائد.

سلبياتها:

احتواؤها على الغث والسمين، مما يصعب التمييز بينهما لدى عامة المسلمين.

احتمال انزلاق القارئ في مقالات فاسدة، تؤثر على دينه.

الإذاعة.

من الوسائل المحدثة في هذا العصر الإذاعات.. وإن كان لها أصل عند الأمم من قبل، فقد كانوا يرسلون من ينادي في المدن والقرى والأسواق، بما يأمر به السلطان، أو بما تريده القبيلة. غير أن وجودها بهذا الشكل المتطور، وبهذا الانتشار الواسع، لم يكن له سابقة. ورغم ما أحدث من وسائل إذاعية أكثر جاذبية، وأوسع انتشاراً، كادت تطغى عليها ؛ كالفضائيات والشبكة، إلا أنه لم يزل للإذاعة أثر فاعل، وما زال لها مستمعون، كراكبي المواصلات، والعمال في مصانعهم، و البائعين في متاجرهم، والنساء في بيوتهن.. فهؤلاء وأمثالهم – في الغالب - لا يستطيعون أثناء أداء مهامهم استعمال وسيلة دعوية أخرى.. كالكتب أو الفضائيات وغيرها، ولكن يمكنهم – بكل سهولة – السماع إلى الإذاعة.

---

[1] قطعة من حديث أخرجه البخاري (52، 2051)، و مسلم (1599)

[2] سبق ذكر هذه القاعدة في هذا المبحث راجع ص ( )

حكم المشاركة في الإذاعات:

أما المشاركة في الإذاعة الدينية والتجارية، فلا غبار عليها.

وأما المشاركة في الإذاعات الرسمية والسياسية، فترجع المسألة إلى المصالح والمفاسد، فإن كان في هذه المشاركة مفاسد، من مداهنة، أو تغرير بالمستمعين، فلا يشارك فيها، فإن دفع المفاسد، مقدم على جلب المصالح (1).

وإن كانت في المشاركة مصالح، ولا يوجد مفاسد، أو كانت المفاسد قليلة لا تذكر أمام المصالح، فلا بأس بالمشاركة فيها.

وأما المشاركة في الإذاعات الخبيثة، التي تنشر الفساد، وتحارب الشرع، فلا ينبغي للدعاة المشاركة فيها، فإن في هذا تكثيراً لسواد المفسدين، وتغريراً بكثير من المستمعين.

ميزات المواضيع المطروحة الناجحة:

من الحكمة بمكان ؛ أن يتسم الطرح عبر الإذاعة والفضائيات بما يلي:

أولاً: أن تطرح الموضوعات العامة، التي تحض الأمة، وتشغل بالها، وتُجنب الموضوعات الفرعية، والتي هي من شأن الخاصة كأصول الفقه، ومصطلح الحديث، وبعض علوم الآلة، أو التي تفرق الأمة بغير حق، أو تحدث الفتن العلمية، أو الواقعية.

ثانياً: على الداعية أن يراعي ما مر سابقاً، في باب حسن الأسلوب ؛ من بساطة الطرح، وسهولة التعبير، ولو أدى ذلك إلى التكلم بلغة الناس العامية (الدارجة) المفهوم منها، وأن يبتعد عن الأسلوب الأرسطوي الفلسفي، والإلقائي الرتيب الممل، فإن ذلك أنفع للمستمعين.

فإن من المستمعين ؛ المرأة والرجل، والصغير والكبير، والعامي والمثقف، والحضري والبدوي.

وأن لا يغفل عن ضرب الأمثلة المبينة، والقصص المعبرة، وما شابه ذلك مما ذكر في باب الأسلوب الحسن.

المحطات المرئية: (الرائي – الفضائيات)[2]:

لعل المحطات المرئية المحلية منها، والفضائية العالمية، من أكثر وسائل الإعلام انتشاراً، ومن الناس إقبالاً، ولربما طغت على كثير من الوسائل الأخرى، لأن طبيعة الإنسان، يشدها الصوت والصورة مجتمعين، ولما تتميز به من تنوع في الأداء، وثراء في المادة المقدمة، وجاذبية في العرض.

---

[1] انظر أشباه السيوطي ص (87، 105)، وأشباه السبكي (15/1)، إيضاح المسالك القاعدة (34).

[2] الرائي: (التلفزيون)

حكم المشاركة فيها:

وهي كالإذاعات في تقسيمها، وفي حكم المشاركة فيها.

لكن التخلف عنها بدعوى حرمة التصوير، وما شابه ذلك غير صحيح، وقد تراجع كثير ممن كانوا لا يرون ذلك (1).

فإن التصوير - وإن كان محرماً — فإن تحريمه لسد الذريعة، وما كان كذلك يباح عند تحقق المصلحة الراجحة، كما سبق بيانه.

ولا شك ؛ أن المصلحة في الدعوة إلى الله عبر هذه القنوات مصلحة راجحة ومحققة، فضلاً عن أن التخلف عن المشاركة في هذا الإعلام الهائل، يشكل فراغاً دعوياً كبيراً، يسدُّ من قبل الضالين أو المنحرفين.

ايجابيات الفضائية:

الكم الهائل من المشاهدين والمستمعين.

الانتشار الكبير للكلمة بين الناس، في بيوتهم، وأسواقهم.. وحتى في نزههم.

سد فراغ كثير من الناس وإشغالهم بما ينفعهم عما لا ينفعهم أو يضرهم.

سلبيات الفضائية:

وجود المخالفات الشرعية أو الفساد في معظمها، مما يخشى على المرء في كثير من الأحايين الانزلاق فيها.

-خروج من ليس أهلاً للتبليغ والدعوة مما يضل الناس، فإن في كثير من الأحايين تتحكم في خروج الداعية في هذه الوسائل عوامل مختلفة

الإنترنت (الشبكة العنكبوتية)

لم يعد خافيا على أحد — وبخاصة الدعاة - ما حصل من قفزة نوعية في عالم الاتصال، وسرعة فائقة في نقل المعلومات، وقذف هائل بها. ثم سهولة في تناولها، حتى كادت تغطي كل بقعة، وتصل إلى معظم الأيدي، وتدخل كثيراً من البيوت، والمؤسسات، والدوائر، والمراكز التعليمة.

وقد حوت وسائل الاتصال هذه ؛ الغث والسمين، والشر والخير.. ويستطيع المرء أن يتناول منها ما شاء، ويدع ما شاء، كل ذلك عبر وسائل كثيرة، من أهمها (الشبكة العالمية)

---

[1] وقد عقد فصل في كتاب أحكام التصوير للمؤلف، بين فيه جواز التصوير عند تحقق المصلحة.

ضرورة استغلالها في الدعوة إلى الله:

سبق أن ذُكر بما لا حاجة إلى تكراره، وتفصيله، أهمية استخدام هذه الوسائل، وأن التخلي عنها يترك ثغرة في المجال الدعوي، يستغلها المفسدون.

والواقع ؛ أن معظم الدعاة، سارعوا إلى استغلال هذه الوسيلة على نطاق واسع، وأجادوا وأفادوا، وإن تردد فريق منهم، وأحجم ورعاً، فله اجتهاده.

وقد فتحت مواقع جيدة منها: الإخباري.. ومنها العلمي.. ومنها الحواري.. ومنها الاجتماعي.. ومنها للفتاوى، ومنها دون ذلك.

وهي كأي وسيلة أخرى، يمكن استخدامها في الخير، وفي الشر، وفيها خير مدخون، وشر معسول، ولا تخلو وسيلة من مثل هذه الوسائل من ايجابيات وسلبيات.

إيجابيات هذه الوسيلة:

الأولى: سهولة تبليغ المعلومة، وسهولة الحصول عليها.

لم يعد خافياً على كثير من الدعاة، سهولة إيصال المعلومة إلى من يريد، وسهولة الحصول عليها، عبر هذه الوسيلة.

وأصبح العالم – والمسلمون جزء منه – في عالم تسوده سهولة انتقال المعلومة، وسهولة في التلقي.

وأصبح بإمكان كل داعية ؛ أن يرسل ما يريد بسهولة، وبإمكان كل مدعو تلقي ذلك بكل يسر.

الثانية: سرعة في تبليغ المعلومة، وسرعة في تلقيها.

لا تخفى حاجة المسلم إلى بعض الفتاوى العاجلة وبخاصة المرأة، وما يتعلق بصعوبة تحركها، وما تحتاجه من فتوى في شؤونها ؛ من حيض، ونفاس، و طلاق، تستدعي وصولَ الفتوى إليها على وجه السرعة.

ثم إن انشغال الشيوخ، وصعوبة الوصول إليهم، ونظام دوائر الإفتاء، لا يلبي حاجة المستفتي هذه العاجلة.

لما لم يعد هناك حاجز بين الداعية وإرسال المعلومة عبر الشبكة، وليس ثمة مانع بين المدعو وتلقي المعلومة.

فقد أصبح هذا المطلب هذا يتحقق اليوم عبر الشبكة.

الثالثة: تنوع المعلومات و غزارتها.

وهذا أمر معروف، نظراً لتعدد مصادر العطاء، وتنوعها.

وبهذه الوسيلة، يستطيع كثير من الناس الذين لهم قدرات كامنة، وليس لهم شهرة تؤهلهم لغيرها أن يلجوها من أوسع أبوابها دون مسئول يمنع، أو رقيب يأذن، مما يثري هذه الوسيلة بالمعلومات، ويمدها بالعطاء.

سلبياتها:

سبق أن ذُكر ؛ أن معظم هذه الوسائل سلاح ذو حدين، وحوم حول الحمى، لذلك لا تخلو – كغيرها من أمثالها – من سلبيات:

الأولى: انفلات زمامها، وانفتاح أبوابها، لكل من هب ودب، ولا يخفى ما في هذا من الخطورة البالغة، والضرر المتحقق.

الثانية: خطورة الانزلاق في مهاوي الرذيلة، فإن فيها ودياناً خطيرة.

الثالثة: تعرض المستخدم لها للسقوط في انحرافات منهجية متطرفة، كالتكفير، والعنف، وما شابه ذلك.

الرابعة: الإدمان عليها، وضياع كثير من الأوقات – بغير شعور من المستخدم – فيها.

نظراً لما تمنحه هذه الوسيلة من حرية للمرء، واعتداد بالنفس، وإشغال للوقت، قد تدفع مستخدمها إلى التعلق بها إلى درجة الإدمان، وفي هذا ضرر بالغ على هذا المستخدم لا يخفى.

النصائح والتوجيهات لاستخدام هذه الوسيلة:

الأولى: يمكن محاولة ضبطها، بأن تكون الأجهزة في مكان بارز، حتى تُرى من الجميع بسهولة، بحيث لا يتمكن الشيطان من استدراج المستخدم.

الثانية: متابعة أفكار المستخدمين، وبخاصة الشباب، وغسلها أولاً بأول.

الثالثة: إذا أحس المستخدم بالضعف، فإما أن يمتنع مباشرة، أو يدخلها مع بعض أخوانه الثقات.

الرابعة: تشديد المراقبة من قبل الجهات الرسمية بشكل مركزي، وعلى مقاهي الشبكة.

الخامسة: توعية المسلمين من خطرها عبر وسائل الإعلام المتنوعة، والمدارس والمساجد.

وسائل الاتصال غير اللفظي:

الاتصال غير اللفظي:

الاتصال غير اللفظي هو الذي تستخدم فذيه بدائل أخرى للفظ المكتوب والمنطوق وتعتمد لغته على الإشارة غير اللفظية التي تؤدي دورا متميزا في الاتصالات والعلاقات الاجتماعية، فعلى الرغم من أننا لا نتفوه بكلمة واحدة في بعض المواقف، إلا أن أشياء كثيرة تعطي عنا معلومات للآخرين. من تلك

الأشياء: المظهر العام، الأفعال، اللباس والحركات وأوضاع الجسم...الخ. وهي حين تفعل ذلك يكون لها تأثيرها على سلوك الآخرين ومواقفهم.

تعبيرات الوجه.

حركات الجسم.

التعبير بالأشياء المادية.

الصور والرسوم والمجسمات.

لوحظ أن الاتصال الشخصي أبعد أثرا من طرق التواصل المختلفة التي تتم عن بعد، (كالمنشورات، والإذاعة اللاسلكية) وذلك لسببين:

أن الاتصال الشخصي يصل إلى عدد من المرات يفوق عدد المرات التي تصل فيها الوسائل الأخرى إليهم.

أن للاتصال الشخصي مزايا سيكولوجية لا تتوفر لطرق الاتصال غير المباشر منها:

أن الاتصال الشخصي يكون في معظم الأحوال لأغراض غير سياسية، (أغراض خاصة بالعمل، أو مصادفة، أو نزهة...الخ) ثم يعرض الحديث للسياسة عن غير قصد، وهذه الحقيقة نفسها –العرض عن غير قصد– ذات أهمية كبرى، إذ نفاجأ برأي الغير، فإذا كان مخالفا لرأينا فإننا نواجهه غالبا بدون أسلحة، وبذلك يغلب عليه أن يؤثر فينا تأثيرا فعالا.

مرونة الاتصال الشخصي، فالشخص الذي يتولى الدعوة لحزب معين يمكنه أن يختار اللحظة المناسبة والظرف المناسب، وإذا صادف مقاومة في لحظة ما يمكنه أن يتراجع تراجعا مؤقتا حتى لا يزيد من شدة المقاومة، وهذا لا يتيسر لوسائل الدعاية غير الشخصية.

قدرة الاتصال الشخصي على أن يكافئ بالثواب أو بالعقاب، إذ يستطيع الشخص الذي يحاول أن يقنعك برأي معين أن يغضب إذا شعر بعدم موافقتك، ويتركك تمضي، فإذا بك تخسر صديقا، ويشعرك بأن رأيه يمثل رأي الأغلبية، فأنت إذا تنعزل عن الأغلبية بمخالفتك له، وتلك كلها عقوبات، كما يستطيع أن يبتسم ويمدحك إذا وافقته، وهذه الميزة لا تتوفر بهذه الدرجة للدعوة أو للدعاية غير المباشرة.)[1]

---

[1] – د. مصطفى سويف: **الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي**– مرجع سابق، ص ص337-338.

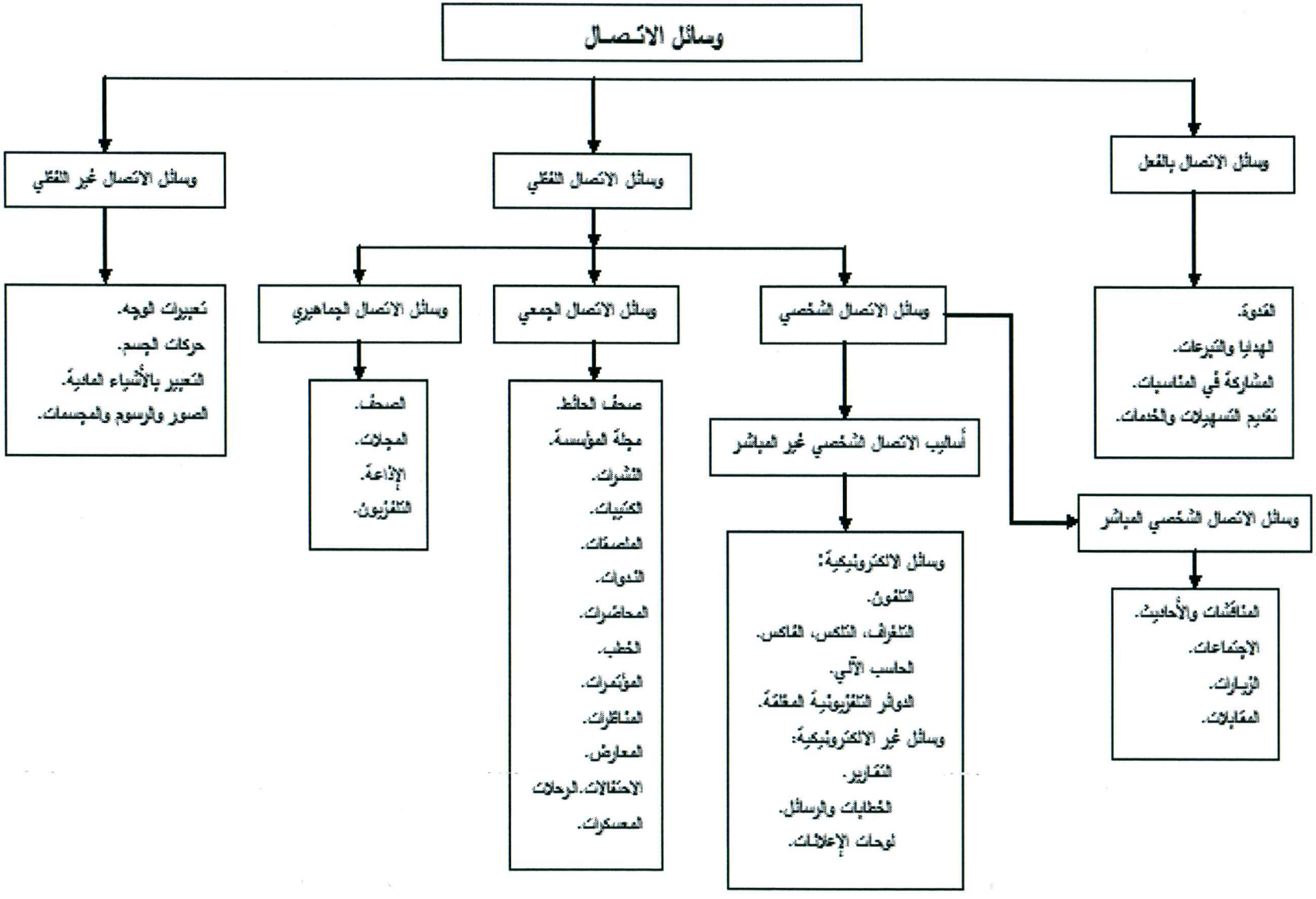
وسائل الاتصال
وسائل الاتصال بالفعل
وسائل الاتصال اللفظي
وسائل الاتصال غير اللفظي
الندوة.
الهدايا والتبرعات.
المشاركة في المناسبات.
تقديم التسهيلات والخدمات.
وسائل الاتصال الشخصي
وسائل الاتصال الجمعي
وسائل الاتصال الجماهيري
تعبيرات الوجه.
حركات الجسم.
التعبير بالأشياء المادية.
الصور والرسوم والمجسمات.
الصحف.
المجلات.
الإذاعة.
التلفزيون.
صحف الحائط.
مجلة المؤسسة.
النشرات.
الكتيبات.
الملصقات.
الندوات.
المحاضرات.
الخطب.
المؤتمرات.
المناظرات.
المعارض.
الاحتفالات.الرحلات
المعسكرات.
أساليب الاتصال الشخصي غير المباشر
وسائل الاتصال الشخصي المباشر
وسائل الالكترونيكية:
التلفون.
التلغراف، التلكس، الفاكس.
الحاسب الآلي.
الدوائر التلفزيونية المغلقة.
وسائل غير الالكترونيكية:
التقارير.
الخطابات والرسائل.
لوحات الإعلانات.
المناقشات والأحاديث.
الاجتماعات.
الزيارات.
المقابلات.

قائمة المراجع

عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة . ط 9 ، بيروت: مؤسسة الرسالة ، 1420 هـ .

أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، دار الكتاب العربي ، 1979م.

مصطفى مشهور : طريق الدعوة ، دار الأرقم ، 1403 هـ .

عبد الله ناصح علوان : مدرسة الدعاة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، 1406هـ .

محمد أبو الفتح البيانوني : المدخل إلى علم الدعوة ، مؤسسة الرسالة ، 1412هـ .

عبد البديع صقر : كيف ندعو الناس ؟ . مكتبة وهبة ، 1400 هـ .

عبد الغني محمد: أسلوب الدعوة القرآنية.

عماد الدين خليل: دراسة في السيرة.

عبد الكريم الخطيب: الدعوة إلى الإسلام.

محمد سيد محمد: المسؤولية الإعلامية في الإسلام.

منير محمد الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية.

فتحي يكن: كيف ندعو إلى الإسلام.

فتحي يكن: الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية.

مصطفى مشهور: من فقه الدعوة.

رفاعي سرور: بيت الدعوة.

محمد أمين المصري: سبيل الدعوة الإسلامية.

محمد أمين المصري: المسؤولية.

مصطفى مشهور: الدعوة الفردية.

همام سعيد: قواعد الدعوة إلا الله.

محمد أبو زهرة: الدعوة إلى الإسلام.

عدنان علي النحوي: دور المنهج الرباني في الدعوة الإسلامية.

صادق أمين: الدعوة الإسلامية.

محمد سرور: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله.

آدم عبد الله الألوري: تاريخ الدعوة إلى الله.

عبد المجيد النجار: فقه التحضر الإسلامي.

عبد المجيد النجار: مشاريع الإشهاد الحضاري.

مصطفى مشهور: طريق الدعوة بين الأصالة والانحراف.

محمد يتيم: العمل الإسلامي والاختيار الحضاري.

محمد الجوهري وآخرون: علم الاجتماع ودراسة الإعلام والاتصال- دار المعرفة الجامعية، مصر، 1992.

فضيل دليو: **اتصال المؤسسة**- دار الفجر للنشر والتوزيع، النزهة الجديدة، القاهرة، مصر، 2003.

فضيل دليو وآخرون : الاتصال في المؤسسة- مؤسسة الزهراء للفنون المطبعية، قسنطينة، الجزائر، 2003.

إبراهيم أبو عرقوب: الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي- دار المجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 1993.

فؤاد عبد المنعم البكري: الاتصال الشخصي في عصر تكنولوجيا الاتصال- عالم الكتب، مصر، 2002.

منال طلعت محمود: مدخل إلى علم الاتصال- المكتب الجامعي الحديث، مصر، 2002.

عبد الله الطويرقي: عالم الاتصال المعاصر- مكتبة العبيكان، السعودية، ط2، 1997.

غريب سيد أحمد وآخرون: علم اجتماع الاتصال والإعلام- دار المعرفة الجامعية، لإسكندرية، مصر، 2001.

عبد الرحمن محمد المبيض: وسائل الاتصال، إعلام، علاقات عامة، دار البركة للنشر والتوزيع، 2001.

منال طلعت محمود: مدخل إلى علم الاتصال- المكتب الجامعي الحديث، مصر، 2002.

أحمد ماهر: كيف ترفع مهاراتك الإدارية في الاتصال- الدار الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2000.

حمدي حسن: الاتصال وبحوث التأثير في دراسات الاتصال الجماهيري- كويك حمادة الجريسي للطباعة، 1993.

فلاح كاظم المحنة: علم الاتصال بالجماهير- مؤسسة الوراق، الأردن، 2001.

Judith Lazar: que sais-je? la science de la communication- presse Universitaire de France,2éme édition; 1993, p 49.

Alain Larami et Bernard Vallée: La Recherche en Communication, élément de méthodologie, Presses de l'université du Québec, Télé –universitaire-1991.